دراسات فى تاريخ العصور الوسطى

— ٣ —

الحجــاج الروس فى مصر

مصر فى كتابات الحجاج الروس

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

دكتور/ فايز نجيب اسكندر
أستاذ تاريـخ العصور الوسطى المساعد
كليـــة الآداب — جامعـــة بنهـــا

دراسات فى تاريخ العصور الوسطى

ـ ٣ ـ

الحجــاج الروس فى مصر

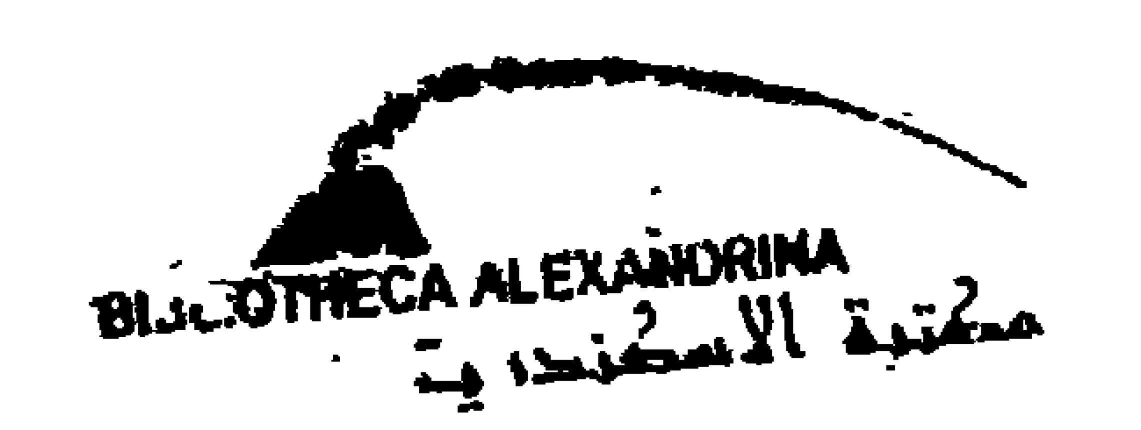
مصر فى كتابات الحجاج الروس

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

دكتور/ فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريـخ العصور الوسطى المساعد

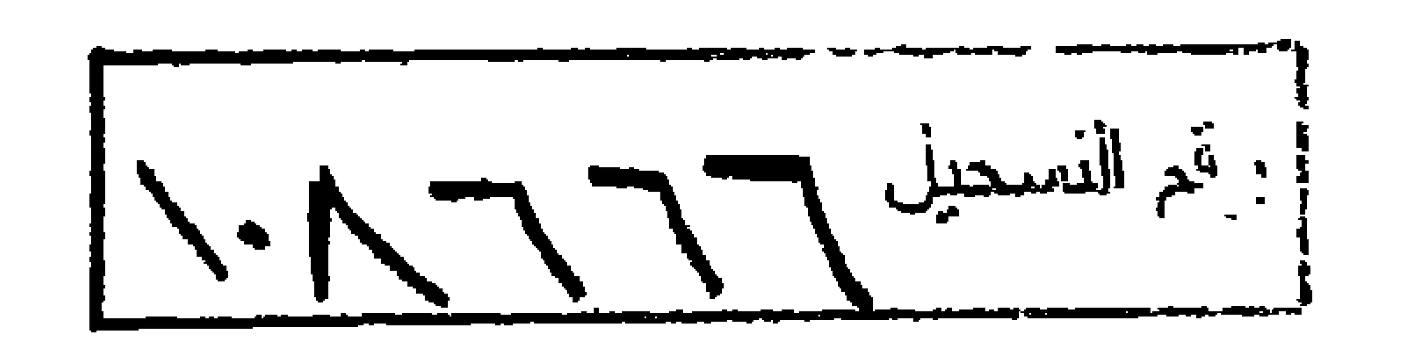
كليـــة الآداب ــ جامعـــة بنهـــا



دار الفــكر الجــامعى

شــارع ســوتر ــ الأزاريطة

الاســكندرية



مصر في كتابات الحجاج الروس *

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

مقـــــــدمة :

تتراءى اوصاف وتقاليد وعادات شعب من الشعوب فى ملحوظات وتعليقات الحجاج والرحالة • فبمجرد عودتهم الى بلادهم ، يخبرون عن الطرق التى سلكوها ، والأحــداث التى صادفوها • وكان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم ، ويعملون على أن ينفعوا غيرهم بتجاربهم ، فيصفون رحلاتهم ، تسجيلا لفضلهم ، وهداية لغيرهم ، ولفتــا لنظــر أولى الأمــر الى مــدى أهمية البلاد التى زاروها •

وكانت العادات والتقاليد على وجه الخصوص ، وأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية التى تبدو فى أعين سكان البلاد شــيئا عاديا ومألوفا ، تظهر أحيانا غريبة عندما تصــادفها لأول وهلة أعين الحجاج والرحالة ، فيلتقطونها ويتناولونها فى مصــنفاتهم بسرد أخاذ ينقــل القــارىء الى مكان وزمان الراوى •

---

* القى الباحث هذه المحاضرة فى الجمعية المصرية للدراســات التاريخية مساء ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٨م ، وستنشر باذن الله فى المجلة التاريخية المصرية . وأتقدم بالشكر لأستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى الأستاذ الدكتور سعيد عاشور لتكرمه بتقديمى الى السادة الحاضرين وادارة الندوة . كما اشكر استاذى الدكتور حسنين ربيع . أستاذ تاريخ العصور الوسطى ووكيل كلية آداب القاهرة على اقتراحه البناء بتغير عنوان البحث من « مصر فى كتابات الرحــالة الروس » الى « مصر فى كتابات الحجــاج الروس » . جــزاه الله كل خير . كما أتقدم بالشكر للاســتاذ الدكتور اسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس لنصائحة العلمية السديدة .

الحـــج الى مصـــر :

ولقـــد حظيت مصر بوصف ممتع كتبـــه الحجاج والرحالة الذين أتـــوا لزيارة معالمها الدينية • فالحج كان منتشرا منذ بـــدء المسيحية • وازداد فى قرونها الاولى • واعتبرت مصر أرضا مقدسة • فقد أجمعت المراجع التى تؤرخ لتاريخ المسيحية فى فجرها الأول على أن ســـيناء أرضا مقدســـة بمثـــابة القـــدس ، اذ ازدادت أهميتها بعد أن أصبحت مركزا لحركة الرهبنة • وقـــد سبق لهـــا أن تمتعت بمنزلة خاصـــة منـــذ فجر الانســـانية بعد أن ارتبط اسمها بالعبادات القديمة • فعلى أرضها بدأت عبادات القمر والشمس والجبال وآلهة القـــوة والخـــير والمـــوت • وبـــدأت عليهـــا الخطوات الأولى للانسانية نحو التوحيد • كذلك يرتبط اســـم ســـــيناء ارتبـــاطا وثيقـــا باســـم ســـــيدنا موسى عليه السلام • فاليها خـــرج على رأس قومه العبرانيين هربا من طغيان فرعون مصر • وفوق أرضها ناجى الله وتحدث اليـــه • وشهدت مصر أيضا رحلة العائلة المقدســـة التى تضم الســـيد المســـيح عيسى بن مريم عليـــه السلام مع والدتـــه السيدة مريم العذراء ويوســـف النجـــار هروبا من بطش هيرودوس •

هكـــذا كرم اللـــه مصر وباركهـــا برحلات الانبيـــاء والرســـل والقديسيين فى كل مراحل تاريخها • وأكدت خطوات ابراهيم الخليل ويوسف الصديق ويعقوب وموسى وهـــارون والمسيح عيسى بن مريم أن الســـماء قد اختارت ســـيناء ، هـــذه البقعة من أرض مصر لتكون قدس الاقـــداس بالنســـبة لمصر ، والارض المقدســـة بالنسبة لكل الاديان • وقـــد شـــهد جبل ســـيناء بنـــاء أشهر كنيســـة فى العالم بعـــد كنيســـة القيـــامة ، وهى كنيسة ســـانت كاترين • تلك الكنيسة التى يحج اليهـــا المسيحيون منـــذ القرون الاولى من تاريخ المسيحية الى يومنـــا هـــذا •

هكـــذا اعتبرت مصر ارضا مقدســـة • وكان أغلب الحجاج الذين يذهبون الى القـــدس ، يضعون مصر فى برنامجهم • وقـــد وصلتنـــا كتابات عديدة من حجاج القـــــرون الوسطى ، بعضها يلقى أضواء على عقـــائد هذا العهد وآرائـــه وتقـــاليده • وتعـــد رحلة بوستوميان Postomian — وهو من أهالى ناربون بجنوب فرنســـا — أقدم تلك الوثائق ، اذ تعود الى مستهل القرن الخامس الميلادى [١] •

أسباب اهتمام أباطرة الروس بمصر :

ومما يذكر أنـــه حتى أواخـــر القرن الرابع عشر الميلادى ، لـــم يسمع الروس الا القليل عن مصر • الا أنـــه فى ســـنة ١٤٧٢ م ، حدث حادث أدى الى تغيرات جذرية فى السياسة الخارجية الروسية ، كان من بين نتائجـــه زيادة الاهتمام بمصر ، ومحاولة ادخالها فى نفوذها • ذلك الحـــادث هو زواج دوق روسيا ايفان الثالث[٢] (فاسيليفتش)

(1) Duchesne, Histoire Ancienne De L'église, Paris, 1952, 5 e, éd., II, pp. 486 — 489 ; Denys Gorce, L'hospitalité et Le Port de Lettrés Dans Le monde chrétien des 4 éme et 5 éme siécles, Paris, 1925, pp. 237 — 238 ; Lagrange, Le Judaisme Avant J. - C., Paris, 1935, pp. 103 — 104 ; Bardy, Les premiers Temps Du Christianisme, Paris, 1940, pp. 94 — 97 .

(٢) تولى ايفان الثالث فاسيليفتش Ivan III Vasilievitch حـــكم بلاد الروس طـــوال الفترة الممتدة من ١٤٦٢م الى ١٥٠٥م . وفى غضون ذلك ، تمكن سنة ١٤٧١م من اخضاع نوفرجرو Novgord لسيادته . وفى ســـنة ١٤٨١م أذعنت له أيضـــا قازان Kazan . كذلك نجح العاهل الروسى فى تخليص بلاده من نير الاحتلال التترى ، ووحد كل أطراف روسيا وأدخلها فى امبراطوريته . ولم يكتف بذلك ، بل عمل على ادخال الحضارة الى ربوع بلاده ، وتنظيم الادارة المدنية والعسكرية ، واصلاح القوانين ، ووضع الأسس المنظمة لولاية العرش . وأتسم عهده بالتفاف العلماء والفنانين الاجانب حوله ، وتشجيعه للعلـــوم والفنـــون والآداب ، لذا استحق عن جدارة واستحقاق لقب « العظيم » وكان ايفان الثالث أول من تلقب بلقب « تزار » Tzar للتفاصيل أنظر : =

(١٤٦٢ — ١٥٠٥ م) Ivan III (Vasilievitich) بصـــــــــوفى • باليولوجس Sophie Paléologue ابنـــة شقيق آخـــر أباطرة الامبراطورية البيزنطية قسطنطين الحادى عشر [٣] (١٤٤٨—١٤٥٣م) Constantin XI •

والجدير بالذكر أن أباطرة بيزنطة كانوا يعتبرون أنفسهم حماة المسيحية والمسيحيين فى الشرق الاسلامى • الا أنه فى سنة ١٤٥٣م ، ســقطت القسطنطينية — مركز المسيحية الشرقية — فى قبضة الاتراك العثمانيين ، وفقدت أســرة باليولوجس عرشها [٤] • ومع ذلك ، وبعد مضى عقدين من الزمان على هــذا الحـــادث الجارف والفاصل فى تاريخ العصــور الوسطى ، أعيــدت الى الوجــود فكــرة حمـــاية المسيحية والمسيحيين فى الشرق الاســلامى ولكن بأقطــاب جدد ، هم زعمــاء الروس • فقـــد تصـــاهر ايفان الثالث مع أسرة باليولوجس — كما ســبق أن ذكرنا — وحمل العاهل الروسى على عاتقـــه المهمـــة التى كان يحملها من قبـــل أباطرة الامبراطورية البيزنطية[٥] • واستمر

= Maximilian Shlosberg, History of The USSR, Moscow, 1977, T. I, pp. 87 — 93 ; Bouillet, Dictionnaire d'Histoire et De Géographie, Paris, 1871, p. 941 ; Catherine Durand — Cheynet, Ivan le, Terrible, Paris, 1981, pp. 12 — 13 ; Henri Vallotton, Ivan le Terrible, Paris, 1959, pp. 21 — 22.

(٣) توفى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثامن Jean VIII فى ٣١ اكتوبر سنة ١٤٤٨م دون أن يترك ولدا . وانتهى أمر الصراع على العرش بتولية قسطنطين الحادى عشر أكبر أشقاء الامبراطور المتوفى . وكان قسطنطين هذا أميرا على شبه جزيرة الموره ومعاصرا للســلطان العثمانى محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١م) . وشاءت الأقدار أن يشهد مصرع الامبراطورية البيزنطية عــلى يد الاتــراك العثمانيين فى التاســع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م . عن تفاصيل ذلك أنظر :
Bréhier, Vie et mort de Byzance, Paris, 1969, pp. 417 sqq.

(٤) عن تفاصيل ذلك أنظر : Bréhier, pp. 425 — 428

(5) Runciman, La chute de Constantinople, Paris, 1965, p. 215 .

تـــزارات [٦] Tzars روســيا يحملون هــذا العبء حتى قيــام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م[٧] .

ومن المعتقد ان هــذا التقــارب والمصاهرة اللذين تما بين كبار دوقــات موسكو وأسرة أباطرة الروم . كان له آثــاره البالغة فى تحريك اهتمامات الروس ببــلاد الشرق الاسلامى ، وحثهم على زيارة بيت المقــدس ومصر . لذا ظهــرت ولأول مــرة كتــابات خلفهــا الرحــالة الروس ، تتحــدث عن زيارة مصر عامــة وجبل القديســـة كاترين [٨] وجبل موسى [٩] والمكـــان المعروف باسم « العليقـــــة المشتعلة » [١٠] على وجــه الخصوص .

---

(٦) تزار Tzar أو تزار Czar لقب حمله امبراطور روسيا . ويعتقد أن الكلمة مشتقة مــن لقب « قيصر » César . ويقــال أن ايفان الثالث كان أول من تلقب به وذلك عقب تخليص بلاده من نير الاحتلال التتارى . الا أن بعض المؤرخين أرجع هذا اللقب الى القرن الثانى عشر الميلادى . ويقال أن الامبراطور الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨م) منح فلاديمير الثانى Vladimir II كبير أمراء روسيا لقب « تزار » وذلك سنة ١١١٥م . أنظر :
Catherine Durand — Cheynet, p. 86, n. 1; Bouillet, p. 488.

(7) Oleg. Voyageurs Russes, I.F.A.O., 1972, p. V .

(٨) يقع جبل القديسة كاترين فى جنوب سيناء ، ويبلغ ارتفاعه ٢٥٩٧ مترا . أنظر جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ — ص ١٢٧ ، سالم اليمانى : سيناء الأرض والحرب والبشر — القاهرة ١٩٧٥ — ص ٤٠ .

(٩) يقع جبل موسى فى جنــوب سيناء هو أيضا ، ويبلغ ارتفاعه ٢٢٤٢ مترا . أنظر جوزيف نســيم يوسف : سيناء ، ص ١٢٧ ، ســالم اليمانى : سيناء ، ص ٤١ .

(١٠) « العليقة المشتعلة أو المتوقدة » Buisson Ardent برج يلجأ اليه النســاك عندما تداهمهم المخــاطر . ويقــال ان هيلانة Helena أم الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ — ٣٣٧م) قد بنته فى القرن الرابع الميلادى . ويقع هذا البرج على مقربة من دير القديسة

وتتميز بعض نصوص الحجاج والرحالة الروس الذين قاموا بزيارة الشرق الاسلامى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين بالاقتضاب • كذلك يلاحظ أن أغلب هؤلاء الرحالة كانوا من الحجاج المسيحيين • فبعد زيارتهم للأراضى المقدسة حيث ولد

=

كاترين . (أنظر : جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ — ص ١٢٧ — ١٢٨) . واصل هذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبات من الشوك المتوقد والنبات لا يحترق . وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة طه ، الآيات ٩ — ١٢ : « وهل أتاك حديث موسى . اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما آتاها نودى يا موسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى » . أنظر أيضا : الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن — بيروت ١٩٨٠— جـ ١٦ ، ص ٧٦ . ووردت الاشارة اليها أيضا فى سورة النمل الآية ٧ « اذ قال موسى لأهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » أنظر أيضا : الطبرى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٧ . وكذلك فى سورة القصص ، الآيات ٢٩ — ٣٢ : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما آتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى انى أنا الله رب العالمين وان الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى اقبل ولا تخف ، انك من الآمنيين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه ، انهم كانوا قوما فاسقين » (انظر أيضا : ابن كثير : قصص الانبياء — الاسكندرية ١٩٨١ — ص ٣١٠ — ٣١٢) . وفى هذه المنطقة الجبلية التى تكسوها الأشجار والنباتات ، تتجلى وحدة الدين فى أبهى صورها وأروعها . فعند سفح أحد جبالها . على مقربة من موضع « العليقة المشتعلة » ، يتعانق الهلال والصليب فى وحدة متينة راسخة ، حيث يوجد دير القديسة كاترين ، والى جانبه مسجد يرجع تاريخه الى بداية القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) . انظر : جوزيف نسيم يوسف : دراسات ، ص ١٣٨ وعن تفسير أسباب تكرار قصة موسى فى القرآن الكريم أنظر : محمود السيد حسن مصطفى : الاعجاز اللغوى فى القصة القرآنية — الاسكندرية ١٩٨١ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ ، محمد ابو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن — القاهرة ١٩٧٠ — ص ١٥٩ — ١٦٢ .

وعاش السيد المسيح عليه السلام ، كان معظمهم يعرج على مصر ، اذ كان يجذبه لزيارتها ما ورد عنها من نصوص فى التوراة والانجيل وما بها من كنائس شيدت منذ فجر تاريخ المسيحية وما حظى به دير جبل سيناء من شهرة وأهمية فى تاريخ العالم الدينى منذ أقدم العصور ٠

والجدير بالذكر أنه توافد على منطقة سيناء وديرها طوال العصر الوسيط العديد من كبار الزوار من الشرق والغرب على السواء وبصفة خاصة اثناء العدوان الصليبى الذى تعرض له الشرق الاسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع من الهجرة) ٠ وكان المحاربون الصليبيون يقومون عادة بزيارة هذه المنطقة المقدسة وديرها وهم فى طريقهم الى الشرق تيمنا وتبركا ٠ ولا تزال آثارهم من رموز وشعارات منقوشة على جدران الدير يمكن للزائر مشاهدتها حتى يومنا هذا ٠ كذلك كان الحجاج المسيحيون من كل بقاع العالم يتوافدون على دير سيناء وهم فى طريقهم الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس رغبة فى الحصول على الغفران [١١] ٠ كما سبق أن أوضحنا ٠

وعلى هذا الأساس ، اهتم الحجاج الروس فى كتاباتهم بوصف الاماكن المسيحية المقدسة فى مصر ، خاصة تلك التى تباركت بمجىء السيدة مريم العذراء والمسيح عليه السلام وسيدنا يوسف ٠ كذلك حظى دير القديسة كاترين [١٢] خاصة والجالية اليونانية

---

(١١) جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى — بحث فى كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى — الاسكندرية ١٩٨٣ — ص ١٣٦ ٠

(١٢) عاشت القديسة كاترين السكندرية فى فجر المسيحية ، وكانت تدين بالوثنية ، ولكنها تركت عبادة الأوثان واعتنقت المسيحية وأخذت تدعو لها ، فانزعج الوثنيون وضايقوها الى أن انتهى الأمر باستشهادها . فلما اقيم الدير المذكور بأمر الامبراطور جستنيان فى حوالى منتصف القرن

=

المقيمة فى مصر [١٣] عامة باهتمامهم البالغ • والجدير بالملاحظة أن قاهرة المعز بمساجدها ومآذنها وقلعتها وغيرها من المعالم الاسلامية البارزة لم تجذب انظار هؤلاء الحجاج الرحالة • ومع ذلك ، فقد أشاروا الى ضخامة مدينة القاهرة[١٤] ورقعتها الشاسعة[١٥] • أما بصدد آثار مصر الفرعونية ، فيبدو أن معظمهم لم يقم بزيارتها • اذ لم ترد أى اشارة عنها فى كتاباتهم •

أحوال مصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر :

وقبل الغوص فى تفاصيل الروايات التى أوردها الحجاج الروس عن مصر وذلك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، ينبغى الاشارة بايجاز شديد الى أحوال البلاد آنذاك • فقد شهدت مصر تغيرا هاما فى كيانها السياسى والاجتماعى والعسكرى

= السادس الميلادى ، نقلوا اليه رفاتها ، ومن ثم سمى باسمها ، كان ذلك فى القرن الثامن ، أى بعد وفاة هذه القديسة بمئات السنين . لمزيد من التفاصيل . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترين فى سيناء — مقال بمجلة كلية الآدب بجامعة الاسكندرية — العدد ٢٢ — الاسكندرية ١٩٦٩ — ص ٩٥ وحاشية رقم ١ ، وكذلك سيناء كنوزها وآثارها التاريخية ، ص ١٢٧ — ١٢٨ ، حاشية رقم ٢ عبده مباشر : سيناء الموقع والتاريخ — القاهرة ١٩٧٨ — ص ١٥٣ — ١٥٥ .

(١٣) اهتم اباطرة الروس بالجالية اليونانية المقيمة بمصر عامة ، ورهبانها الذين يتبعون طائفة الروم الارثوذكس خاصة . فكانوا يرسلون مبالغ طائلة الى البطريرك لسد احتياجات ومصاريف الرهبان . يتضح ذلك جليا من خلال كتابات الرحالة الروس .

(١٤) أنظر فى هذا Khitrovo, le Pélerinage du Marchand Basile (1465 — 1466), Genéve, 1889 ; p. 244.

والجدير بالذكر أن بعض الرحالة الروس خلطوا بين القاهرة العاصمة المصرية ، ومصر . فاطلقوا كلمة مصر للدلالة على القاهرة . انظر :

Triphon Korobeinikoff, Pérégination de Triphon korobeinikoff, St. Pétersbourg, 1888, pp. 33, 34, 45 — 47.

(15) Khitrovo, Récit du Hiéromoine Grégoire du Mt. Sinai (1547), p. 269 .

والاقتصادى ، اذ عاشت عصرين : اواخر عصر سلاطين المماليك ، وأوائل عهد العثمانيين • وعلى هذا ، فان هذه الفترة الزمنية تشكل حلقة هامة فى سلسلة تاريخ مصر ، لكونها مرحلة انتقال بين عصرين مختلفين • فبعد أن نعمت البلاد باقتصاد قوى ومستقر وذلك فى أوائل عهد سلاطين المماليك ، عادت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى الشقاء ومعاناة أعراض التدهور العام والانحلال والركود والقحط والوباء ، كل هذا نتيجة ما أصابها من تدهور اقتصادى • تلك سنة الله « فالغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان فى عالم الكون والفساد ، منذ بدأ الله الخليقة فى سائر الاقطار وجميع الاقطار والأمصار »[١٦] على حد قول المقريزى فى مصنفه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » •

على أية حال ، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، تعرضت سلطنة المماليك لأزمات عنيفة هدت كيانها وقوضت بنيانها • فقد بدا فى الافق مظاهر التدهور الاقتصادى[١٧] وواجه سلاطين المماليك هذا الداء الفتاك باستخدام طرق يتحايلون بها للحصول على المال ، منها على سبيل المثال رفع الضرائب ، وتحصيلها

---

(١٦) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة — القاهرة ١٩٥٧ — ص ٧ •

(١٧) عن التفاصيل الدقيقة لمظاهر التدهور الاقتصادى آنذاك أنظر البحث القيم الذى اعده الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان « التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ — ٩٢٣هـ / ١٤٦٨ — ١٥١٧م) فى ضوء كتابات ابن اياس » بحث فى كتاب « ابن اياس دراسات وبحوث » — القاهرة ١٩٧٧ — ص ٦٣ — ٨٨ • وقد أعيد طبع البحث فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى — بيروت ١٩٧٧ — ص ٣٥١ — ٣٧٢ •

مقـــدما (١٨) .

هذا من ناحيـــة ، ومن ناحيـــة أخرى تداعى نظـــام المماليــــك بعـــد أن ازدادت المنازعات التى كانت تقوم بين الامراء على السلطة ، فصاحب ذلك اراقـــة الدماء وانقسام البـــلاد ودمارها(١٩) . وتحول

---

(١٨) تحت أحداث سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ذكر ابن اياس أن السلطان قايتباى اشتدت حاجته الى المال ، ففرض ضريبة شهرين على الاوقاف والأملاك التى بالقاهرة ومصر . ثم عاد فأطال مدة جبايتها خمسة أشـــهر أخر . « فضاقت الدنيا بالناس ، وقال بعض الموالة فى هذا المعنى :

غـــرمت شـــهرين عن أجـــرة مـــكانى أمس
وأصـــبحت مغموس فى بحر المغارم بخمس
أقســـم بربب الخـــلايق والقمر والشـــمس
ما طقت شـــهرين كيف أقدر أطيـــق الخمس

(أنظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور — كتاب الشعب ٩٩ — ص ٥٦٤ — ٥٦٥ . أنظر أيضا : سعيد عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٨٥ — ٨٦ ، نظير حسان سعداوى : صور ومظالم من عصر المماليك — القاهرة ١٩٦٦ — ص ١٢٨ ، فاضل عبد اللطيف الخالدى : ابن اياس المصرى ومنهجه فى البحث التاريخى — بحث فى كتاب ابن اياس دراسات وبحوث — ص٣٥ . والملاحظ أن الدكتور الخالدى اســـتبدل كلمة « غرمت » بكلمة « عرفت » وكلمة « بربب » بكلمة « وربب » وصحة ذلك ما اثبتناه) . ويذكر ابن اياس أن قايتباى لم يعرف المبالغ الطائلة التى تحصلها فى شىء عاد نفعه على الناس . ففى هذا المعنى يقول : « وياليته صرف هذا المال فى شىء عاد نفعه على الناس ، ولكن صرفه فى غير مستحقه وراح فى البطـــال ولـــم ينتفع به » . ابن اياس — ص ٥٦٥ .

(١٩) أبو المحاسن : منتخبات من حـــوادث الدهور فى مدى الايام والشهور — كاليفورنيا ١٩٣٠ — ج ١ ، ص ١٩ ، ابن اياس : أحداث سنة ٨٩١هـ ، ص ٥٣١ ، ٥٣٦ . أنظر ايضـــا : سعيد عاشـــور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٧ ، ٧٠ ، نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بـــين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى — القاهرة ١٩٧٣ — ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

المماليــك الجلبـــان (٢٠) الى أداة للعبث والعـــدوان على المصريين الآمنيين (٢١) . واستولوا على الممتلكات الخاصة والعامة ووزعوها على شكل اقطاعات على أمراء الجند وكبــار رجال الدولة (٢٢) . وكثــرت

---

(٢٠) مع افتقار سلطنة المماليك ، دأب السلاطين على شراء المماليك كبــارا لأنهم ارخص ثمنا من الصــغار . وقــد اطلقت على هؤلاء اسم « المماليك الجلبان » . وكان من الصعب تعليمهم آداب السلوك . وكان لهذا الفشل فى تقويم السلوك آثاره الوخيمة على دولة سلاطين المماليك ، اذ تحولوا الى أداة هدم ومعول تخريب . أنظر سعيد عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٧٠ ، نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٢١) من ذلك على سبيل المثال ما ذكره ابن اياس تحت أحداث سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٨م « أن المماليك الجلبان وثبوا على السلطان بالقلعة واظهروا العصــيان ، وحصــل منهم فى ذلك اليوم غــاية الفساد ... فاستمرت هذه الفتنة قائمة ثلاثة أيام والقلعة مائجة » . أنظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور — الطبعــة الثانية تحقيق محمد مصــطفى — القاهرة ١٩٦٠ — ص ١٢٦ . أنظر ايضا : عاشور : التدهور الاقتصــادى ، ص ٦٧ و ٧٠ ، نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٣٧١ ، أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٣٢ .

(٢٢) أدرج ابن اياس ذلك تحت احداث جمادى الآخر سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م . وقد نال ابن ايــاس من تلك الكارثة ما نال غيره من ابنــاء طبقته . اذ تأزمت أحوال السلطان الغورى لضيق سبل المــال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد الى اخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ، وقطع الرزق الاحباسية والاوقاف عن أهلها « فأخرج نحوا من ثلثمائة اقطاع وزرقة من غير جنحة ولا سبب ، وصــار ينعم بها على المماليك بمكاتبات » . وأطلق لمماليكه العــنان ليهاجموا اصــحاب تلك الاقطاعات فى بيوتهم « ويأخذون منهم مناشيرهم غصبا عنهم ويبهدلونهم بــالضرب » وذهــب اقطــاع ابن ايــاس الى أربعــة مــن المماليــك بمكاتبات سلطانية . (ابن اياس : تحقيق محمد مصطفى ، ج ٤ ، ص ١٣٦ ، طبعة كتاب الشعب رقم ١١٣ ، ص ٧٦٩) . غير أن ابن اياس لم يبــق بغير اقطاع مدة طويلة ، اذ وقف للسلطان الغورى اوائل سنة ٩١٥هـ / ١٥١٠م بقصة يشكو فيها حاله ، فنصره السلطان عــلى المماليك الذين أخذوا اقطاعه . وهكذا اســترد ابن اياس اقطاعه المغتصب . ومــدح الســلطان الغورى بقصــيدة من ٣٥ بيتا من نظمه . أنظــر : بدائــع الزهور — تحقيق محمد مصطفى — ص ١٧٣ — ١٧٥ ، طبعة كتاب الشعب ص ٧٩٣ — ٧٩٤ . انظر أيضــا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص =

ثوراتهم على السلطان بدعوى عـدم الرضا عما يخصصه لهم من نفقة وأموال ، مطالبين بالمزيد (٢٣) • فتحولوا بذلك الى أداة هدم ومعـول تخريب لاقتصـاد البـلاد المتهالك • أما سـلاطين المماليك ، فقـد وقفوا وقفة العاجز (٢٤) • وكثيرا ما تنازع المماليك السلطنة والحكم • ظهر بوضوح بالغ منذ وفاة السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢ — ٩٠١هـ / ١٤٦٨ — ١٤٩٦م) حتى تولى الغورى السلطنة عام ٩٠٦هـ / ١٥٠١م ، اذ تأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهورا وأياما ، مما يـدل دلالة واضحة على مـدى الفوضى وعـدم الاستقرار التى عمت ربـوع مصر آنـذاك (٢٥) • وكان من الطبيعى أن تؤثر هـذه القـلاقل والفوضى والاضطرابات على الحياة الاقتصادية فيهـا •

ولم ترحم الكـوارث الطبيعية مصر آنذاك ، اذ كثيرا ما انخفض منسوب ميـاه النيل (٢٦) ، فانعكس ذلك بالتالى على قلـة الانتـاج

= ٧٩ — ٨١ ، أحمد عزت عبد الكريم : ابن اياس ، ص ١٤ — ١٥ ، أحمد عبد الرازق : دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة — القاهرة ١٩٧٤ — ص ١٦٤ — ١٦٥ ، محمد مصطفى زيادة : المؤرخـون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى — القاهرة ١٩٥٤ — ص ٥١ ، سيدة اسمـاعيل كاشف : مكانة ابن ياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى ، ص ٥٤ .

(٢٣) الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٣هـ — ص ٢١ — ٢٢ ، ابن اياس : ص ٤٤٨ — ٤٥٠ و ص ٥٣٧ — ٥٣٨ . انظر أيضـا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٧ .

(٢٤) أنظر على سبيل المثال : الصيرفى : انباء الهصر بأنباء — تحقيق حسن حبشى — أحداث سنة ٨٧٤هـ ، ص ١٣٧ . أنظر ايضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٩ .

(٢٥) الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٣هـ ص ١٠ . أنظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٦ ، نعيم زكى : طـرق التجـارة الدولية ، ص ٣٧١ .

(٢٦) انظر على سبيل المثال : الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٣هـ — ص ١٣ و ١٧ : ابن اياس : كتاب الشعب ٩٩ — أحداث سنة ٨٩١هـ — ص ٥٣ . أنظر أيضا عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٧٤

الزراعى وارتفـاع الاسـعار[٢٧] • وكثيرا مـا تعرضت المحاصيل الزراعية للآفات الفتاكة[٢٨] ، مما أثر تأثيرا بالغا على قلة المعروض منهـا فى الاسـواق • وتبع كل هـذه المصائب انخفاض قيمة العملة نتيجـة التضخم الهائل ، وكثرت عمليات تزييف النقـد[٢٩] • وأهملت الدولة المرافـق العامة[٣٠] ، فتعرضت بالتالى للخراب • أما الفـلاح فلم يأمن على غـده ، فكان عليه ليس فقط مواجهة الاخطار السالفة الذكـر ، بل أيضـا خطر العربـان الذين اعتـادوا الانقضاض عليه ونهب محاصيله ومواشـيه[٣١] • أضف الى ذلك تفشى وبـاء الطاعون

---

(٢٧) على سبيل المثال ما ذكره الصيرفى تحت احداث شهر ربيـع الأول سنة ٨٧٣هـ ان « الاسعار فى نمو وزيادة ، لا سيما الحبوب ... وسائر ما يؤكل غلا وعدم » . أنظر : انباء الهصر ، ص ١٧ . وكذلك ٢٦ ، ٣٢ . اما ابن اياس فقد ذكر انه فى سنة ٨٩١هـ « تناهى سعر البرسيم .. وسبب ذلك أن حب البرسيم التقاوى كان غاليا ، وكان النيل خسيسا ، والذى طلع من البرسيم أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال مرتفعا فى السنة المذكورة ، حتى غلا سعر الماء » . انظر : بدائع الزهور كتاب الشعب ٩٩ — ص ٥٣٠ — ٥٣١ . وتحت أحداث سنة ٨٩٢هـ عبر ابن اياس أحسن تعبير حين قال انه « اشتد أمر الغلاء ... وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع » . أنظر : بدائع الزهور ، ص ٥٣٩ .

(٢٨) أشار الى ذلك ابن اياس فى الحاشية السابقة حين قال أن محصول البرسيم « أكلت غالبه الدودة » .

(٢٩) الصيرفى : انباء الهصر — أحداث سنة ٨٧٧هـ ، ص ٤٨٢ ، ابن اياس : كتاب الشعب ٩٦ — أحداث ٨٧٩هـ ، ص ٤٥٦ . أنظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٨٢ ، والمجتمـع المصرى فى عصر سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٦٢ — ص ٨٨ .

(٣٠) ابن اياس : احداث سنة ٨٨٣هـ ، ص ٤٨٢ . أنظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٨ .

(٣١) أنظر على سبيل المثال : ابن اياس : احداث سنة ٨٧٢هـ — ص٣٩٨ ، أحداث ٨٧٩هـ — ص ٤٥٤ ، أحداث سنة ٩٠٤هـ — ص ٦٣٨ ، الصيرفى : انباء الهصر ، ص ١٥٣ و ٤٣٣ . أنظر : سـعيد عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٦٨ .

فى موجات متلاحقة [٣٢] • ولم يرحم سلاطين المماليك الشعب المصرى المطحون ، اذ اثقلوا كاهله بالضرائب ، ولجأ الجباة الى اتباع الأساليب القهرية لاستيفائها [٣٣] •

هذا غير الاسباب الداخلية للانهيار الاقتصادى فى أواخر عصر المماليك ، هناك أسباب أخرى تتعلق بعوامل خارجية تضافرت جميعها لهدفين أساسيين : أولهما : القضاء على مصدر ثراء سلطنة المماليك المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب • وثانيهما : القضاء على السلطنة ذاتها • ووقع الهدف الأول على عاتق القطالنة والبرتغاليين • بينما وقع الثانى على عاتق العثمانيين [٣٤] •

فنتيجة ما أصاب المماليك من ضعف ووهن ، أغار الاعداء على

---

(٣٢) مصادر عصر دولة سلطنة المماليك عامرة بأحداث انتشار الطواعين أنظر على سبيل المثال : المقريزى : السلوك لمعرفة دولة الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة — ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٧٤ — ٧٨٧ ، السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك — بولاق ١٨٩٦ — ص ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — القاهرة ١٩٣٠ — ج ١٠ ، ص ١٩٥ — ٢١٢ ، ومنتخبات من حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ج ٣ ، ص ٧٠٥ ، الصيرفى : انباء الهصر ، ص ١٢ ، ٣١ ، ابن اياس أحداث سنة ٨٧٣هـ ، ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ، أحداث ٨٨٨هـ ، ٥١٥ ، أحداث ٩٠٣ ، ص ٦٣٢ . ولشهاب الدين احمد بن حجر العسقلانى — صديق المقريزى — كتاب مخطوط بعنوان « بذل الماعون فى أخبار الطاعون » يفرق فيه بين الوباء والطاعون . انظر أيضا : عاشور التدهور الاقتصادى ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور — احداث ٨٩٢هـ — ص ٥٤٢ . أنظر أيضا : عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٨٢ — ٨٤ ، الخالدى : ابن اياس المصرى ومنهجه فى البحث التاريخى ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣٤) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

أطراف البـــلاد وسواحلها [٣٥] • فتطلبت هـــذه الحروب الاستنزافيـــة مبالغ طائلة من خزانـــة خاوية ، وبالتالى ازدادت الاوضاع الاقتصادية ســـوءا فـــوق ســـوء •

كذلك كان لكســـاد تجارة سلطنة المـــاليك الأثـــر البالغ فى هلاك اقتصـــادها ، اذ تقطعت أوصال معظم طرق التجـــارة الداخليـــة بين الشرق والغـــرب بســـبب ظهور التتار [٣٦] ، مما أدى الى غلق الطرق التجارية القـــديمة ، من شـــرق آســـيا ووسطها الى غربيها • الا أن ذلك ســـاعد على ازدهار الطريق التجـــارى البحـــرى من الصـــين والهند الى البحـــر الاحمر ومصر والشام [٣٧] • لكن لم يلبث أن انهار هـــذا الطريق أيضـــا اواخـــر القرن السادس عشر • وذلك منـــذ نجاح البرتغاليين فى اكتشـــاف طريق رأس الرجاء الصالح والدوران حـــول افريقيـــة والوصول الى الهنـــد • فأتى هـــذا الاكتشـــاف على المـــورد الأســـاسى لثروة وقـــوة سلطنة المماليك [٣٨] ، مما جعـــل أحوالها الاقتصادية فى حالة يـــرثى لهـــا ، وانعكس ذلك بالتالى على أحوال مصر الاجتماعية والثقافية والعسكرية •

---

(٣٥) أشار ابن اياس الى ذلك فى عدة مواضع فتحت أحداث سنة ٨٧٨هـ ذكر أن الافرنج اغاروا على الاسكندرية ودمياط . ففى هذا المعنى قال : « وفيه جاءت الاخبـــار من الاسكندرية بأن الافرنج عبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط » أنظر : بدائع الزهور ، ص ٤٤٦ .

(٣٦) قام ماركو بولو برحلة شهيرة الى الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار الى ما ترتب على غزوات التتار من انعدام الامن فى طريق التجارة البرى بين الصين من جهة آسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة اخرى . وقد اعتاد اللصوص آنذاك الاعتداء على القوافل والتجارة . انظر : سعيد عاشـــور : العصر المماليكى فى مصر والشـــام — القاهرة ١٩٦٥ — ص ٢٨٥ .

(٣٧) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ٣٦٩ .

(٣٨) عاشور : التدهور الاقتصادى ، ص ٧٧ .

هكـذا ، تكاتفت العوامل الداخلية منهـا والخارجية لتأتى على نظـام دولـة سـلطنة المماليك فى مصر والشـام والحجاز ، وتسقط فى نهـاية المطـاف فريسـة سـهلة أمام جحافل الغـزاة العثمانيين وذلك سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وتتحول مصر الى ولايـة عثمانية •

ولم تكن مصرياً حسن حـال فى العهد العثمانى • فقـد اجتاحت الجيوش العثمانية ربـوع البـلاد كالضوارى المفترسـة • فأذاقوا المصريين أشنع الوان السـفك والظلم والمصادرة « وتزايـد منهـم الفساد حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرقات والازقـة والأسواق فى النهار والليـل ، وصـار النـاس على رءوسهم طيرة من العثمانية ، يجدون القتلى مرمية فى الطرقات[٣٩] ولولا لطف الله تعالى لفنى أهل مصر قاطبة بالسيف ••• وراح اصالح بالطـالح ••• [٤٠] » وجمع السـلطان سليم الأول من تراث مصر وثرواتها كل ما وصلت اليـه يـده • وقبض على أكابرها وزعمائها وعلمائها ورجال المهن والفنون فيهـا ، ومهرة الصناع والعمال وأرسلهم الى القسطنطينية • وبذلك جـرد مصر من أكابرها وزعمائها فحطـم عصبيتها ، وقتـل قواها المعنوية • واضعف تراثها الفنى والفـكرى والصـناعى [٤١] •

هـكذا اتسم عهـد الاحتلال العثمانى لمصر بالظلام الدامس ، **« ولم يقـاس أهل مصر شـدة مثل هـذه قـط [٤٢] على حـد قول**

---

(٣٩) ابن اياس : احـداث سنة ٩٢٤ هـ — كتاب الشـعب ١٢٥ — ص ١١٢٦ •

(٤٠) ابن اياس : أحداث سنة ٩٢٣ هـ ، ص ١٠٨٣ •

(٤١) للتفاصيل انظـر محمد عبد الله عنان : ابن ايـاس والفتـح العثمانى لمصر ، ص ١٣٩ — ١٤٨ ، عبد المنعم ماجد : تاريخ سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٨٨ — ص ٣٦٢ •

(٤٢) ابن اياس : أحداث سنة ٩٢٣ هـ — ص ١٠٨٣ •

شـــاهد العيان المؤرخ المصرى محمد بن احمد بن اياس [٤٣] •

هذا عن أحوال مصر المتردية اثناء قيام الحجاج والرحالة الروس بزيارتها منـــذ مستهل القرن الخامس عشر الميلادى • على أيـــة حال ، ســـطر الرحـــالة الروسى جريثينيوس Gréthénios الصفحة الأولى فى تاريـــخ العلاقات المصرية الروســـية •

الحجاج الروس فى القرن الخامس عشر :

— رحلة جريثينيوس Gréthénios سنة ١٤٠٠ م :

ويعـــد مصنف جريثينيوس Grethénios وعنوانه « حـــــج الأرشيمندريت جريثينيوس من دير القديســـــة العـــذراء مريم » [٤٤]

« Le pélerinage deL'archimandrite Gréthénios du couvent de La Ste Vierge »

أول ســـفر وقع تحت أيدينـــا لحـــاج روسى قامبزيارة مصر • كان ذلك حوالى سنة ١٤٠٠ م • ففى طريقـــــه الى الأراضى المقدســـة ، مـــر رئيس [٤٥] ديـــر القديســـة العذراء مريم ، بمصر • وخلف لنـــا رواية عن رحـــلة حجـــه تتسم بالاختصار الشديد • اذ خصص بضـــعة أسطر لا تتعـــدى أصابع اليـــد عن مصر • وقـــــد اقتصر سرده على ذكـــر

---

(٤٣) شهد ابن اياس حوادث الفتح العثمانى لمصر ، بعد أن اجتاحت الجيوش العثمانية الشاموفلسطين . وكان شاهد عيان لما ارتكبوه فىالقاهرة من اعمال السفك والتقتيل والتخريب والنهب . وحمل فى مصنفه على هؤلاء السفاكين والظلمة وذلك فى عبارات شـــديدة مؤثرة . وافاض فى ســـرد فظائعهم وجرائمهم . كما أشـــاد ببطولة طومان باى . أنظر ابن اياس : أحداث ٩٢٣ — ٩٢٤ هـ ـــص ١٠٧٨ — ١١٥٦ .

(44) Khitrovo, Le Pélerinage de L'archimandrite Gréthénios du Couvent de la Ste Vierge (VERS 1400), Genève, 1889, p. 167; Oleg, Voyageurs Russes, I.F.A.O., 1972, p. 1.

(٤٥) يحمـــــل جريثينيوس لقب « أرشيمندريت » Archimandrite وهو لقب يطلق على عدد من رؤساء الاديرة . انظر Bouillet, p. 103

المدن التى زارها والوقت اللازم للانتقال من مدينة الى أخرى ، فتجاهل بذلك وصف أهم معالم كل مدينة ومظاهر النشاط السكانى فيها . وعلى هذا ورد فى مصنفه أن الطريق : « من أورشليم

الى غزة يستغرق ثلاثة أيام . ومن غزة الى القاهرة اثنى عشر يوما ، ومن القاهرة الى الاسكندرية ستة أيام ، ومن القاهرة الى جبل سيناء خمسة عشر يوما [٤٦] . ومن غزة الى جبل سيناء خمسة عشر يوما . وذكر أن المسيحيين الارثوذكسى يذهبون الى جبل سيناء ، الا أنهم لا يخاطرون بالذهاب الى أماكن أبعد من ذلك بسبب انعدام الطرق » [٤٧] .

وهكذا ، لا يكاد سرد جريثينيوس المقتضب يضيف جديدا الى موضوع كتابات الحجاج الروس عن مصر . اذ اقتصر على ذكر المدة اللازمة للانتقال من موضع الى آخر .

ومع ذلك ، يعد مصنفه أول مصنفات الحجاج الروس التى ورد فيها ذكر مصر . وربما أسهم بفاعلية فى تشجيع غيره لزيارة معالمها المقدسة . وهذا ما حدث بالفعل ، اذ يبدو أنه كان بادرة طيبة لغيره من الحجاج من بنى جنسه للسير على منواله .

---

(٤٦) اختصر الرحالة باسيل بوسيناكوف ثلاثة ايام عندما قام بهذه الرحلة على ظهر جمل . انظر :

Khitrovo, Le pélerinage du marchand Basile Posniakoff aux Lieux Saints de L'Orient, 1558 — 1561, p. 277 ; Oleg, p. 20.

(47) Khitrovo, Le Pélerinage de D'archimandrite Gréthénios du couvent de La Ste Vierge (Vers 1400), p. 167 ; Oleg., p. 1.

— رحلة التــاجر باســيل فى سنتى ١٤٦٥ — ١٤٦٦ م :

على أيــة حال ، لم يكن مصنف جريثينيوس المصنف الأوحد الذى يرجع تاريخه الى القــرن الخامس عشر ، بل وصل الينــا مصنف ثــان أكثر افاضة وأهميــة كتبــه التاجر الروسى باســيل بعنوان « حــج التاجر باســيل » (٤٨) Le Pélerinage du marchand Basile

فقــد عــزم التاجر الروسى باسيل Basile على زيارة الأراضى المقدســـة • فانطلق من بـــلاده الى بروســـــة (٤٩) Brousse فى تركيــا ، ثم توجــه الى بيت المقــدس ومنهــا الى غــزة وأخيرا رحــل الى القــاهرة •كان ذلك فى عامى ١٤٦٥ — ١٤٦٦ م •

ولحسن الحــظ ، خصص باســيل صفحة من مصنفه ســرد فيها ما شــاهده فى مصر • واهتم اهتمــاما بالغــا بقريــة المطــرية التى ارتبــط ذكرها بقصة لجوء العائلة المقدســة الى مصر • كذلك جذبت أنظــاره ضخامة مدينة القاهرة بكثرة شوارعها وأبوابها وأبراجهــا ومنازلهــا وأســواقها • ولم يفتــه ذكــر المــدة الزمنيــة اللازمــة للانتقال من موضـــع الى آخــر كعــادة رحــالة العصــور الوســطى ســواء أكانــوا من المسلمين أم من المسيحيين •

---

(48) Khitrovo, le pélerinage du marchand Basile (1462 — 1466), pp. 244 — 245 ; Oleg, pp. 3 — 4.

(٤٩) تقع بروسة على بعد ٩٥ كم جنوب شرق القسطنطينية وقد ظلت فى ايدى اباطــــرة بيزنطية الى أن استولى عليهــا اورخان Orkhan سنة ١٣٢٥ م وجعلها عاصمة له الا ان تيمور لنك قام باحراقها سنة ١٣٧٧م، فأعاد بنائها محمد الثانى . ثم استولى عليها سليمان وقام باحراقها ، وأخيرا أصابها الدمار والخراب بفعل زلزال مدمر . كان ذلك ســنة ١٨٥٥ م . أنظـــــر Bouillet, p. 290.

ففى كتابه عن رحلة حجه قال عن مصر :

« ومن هناك (أى من غــزة) يكون الطريق نحو القاهرة عبر الرمال • ويتطلب الأمر أربعة أيام من السير للوصول من غــزة الى قطية [٥٠] Catieh ، حيـــث يوجد بهـــا أعداد هائلة من أشجار النخيل ، ويأتى اليها المـــاء من نهر النيـــل • ومن قطيـــة الى الخانكة [٥١] مســـيرة يومين • والخـــانكة موضع يشـــتهر بازدهاره

---

(٥٠) « قطية » بالفتح ثم السكون ، وياء مفتوحة : قرية قـــرب الفرما ، فى الطريق بين مصر والشام ، وهى تعتبر المجاز بينهما . أنظر ياقوت معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٤٤ ، البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، جـ ٣ ، ص ١١١١ ، المقريزى : البيـــان والاعراب ص ٦١ ، حاشية رقم ٩٨ . وتكتب احيانا « قطيـــا » وأنظر ابن اياس ص ١٠٨٢ ، الصيرفى : ابناء العصر ، ص ٣٦٨ . ويذكر محمد رمزى انها من نواحى الجفار ، أطلالها بين القنطرة والعريش فى الجنـــوب الشرقى من محطـــة الرمانة وعلى بعد ١٠ كم منها ، وتقع فى الشـــمال الشرقى من ناحية القنطرة على الســـكة الحديدية الموصلة للعريش بينها وبين القنطرة ٤٥ كم . أنظر : القاموس الجغرافى (البلاد المندرسة) ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ ؛ صفاء حافظ : الموانى والثغور المصرية — القاهرة ١٩٧٧ — ص ٢١ ، حاشية رقم ٣٣ . والجدير بالذكر أن الرحالة البلجيكى جوس فان غستل Joos Van Ghistele ذكـــر فى كتابه « رحلة الى مصر فى سنتى ١٤٨٢ — ١٤٨٣ » Voyage en Egypte انـــه زار « واحـــة قطيـــة » L'oasis de Cattia وذكر انهـــا على مسافة أربعـــة أو خمســـة أيـــام من غـــزة ، وحـــدد أن واحـــة قطية هى أول المواضع المسكونة منذ غادر غـــزة . وقال انهـــا قرية صغيرة تبدو من الخارج شـــديدة الفقـــر ، الا انه يقطنها جموع كثيرة من الاثرياء . وتتوافر المواد الغذائية بداخل هـــذه القرية ، كما أنهـــا تقع وسط غابـــة من النخيل أنظـــر

Joos Van Ghistele, Voyage en Egypte, I.F.A.O., 1976, ch. 3. pp. 10 — 11 .

وقد بـــدأ الباحث تحقيق وترجمة رحلة جوس فان غستل لما لهـــا من أهمية بالغـــة فاقت غيرها من كتب الرحلات .

(٥١) تقع الخانكة على مســـافة تناهز العشرين كيلو متـــر شـــمال شرق القاهرة . أنظر

Oleg, Voyageurs Russes, p. 3, n. 3 .

التجارى . وتقع قريـــــة المطرية على يمين الطريق من الخانكة الى القاهرة ، على مسافة خمســـة فرست [٥٢] Verstes (أى ٥٣٣٥ متـــرا) قبــل الوصول الى القاهرة ، حيث يجـــد المرء شجرة بلسم غير مثمرة . اذ عندما أسدل الليـــل أستاره ، التجأت القديسة مريـــم العذراء مع ابنهـــا وسيدنا يوسف أسفل شجرة البلسم السالفة الذكر ، بعد نجاحهم فى الهروب من القدس الى مصر . ولازالت هـــذه الشجرة الى يومنا هـــذا [٥٣] — (أى على عهـــد التاجر الروسى باسيل) .

وقد شعرت القديسة مريم بظمأ (الكلام للرحالة باســـيل) فوضعت وليدها على الرمال ، وتوجهت نحو ضيعـــة صغيرة ، حيث التقت بامـــــرأة وقالت لهـــا :

« اعطنى اشـــرب » .

فأجابت الســـيدة :

« ليس لـــدى ماء فأنـــا ظمأى أنـــا أيضا ، ونحن نشرب ماء النيـــل » [٥٤] .

فعادت القديسة مريم ثانية الى طفلهـــا ، فوجدت عين مـــاء أسفل قدميـــه ، فأرتوت منـــه . ثم اكتشفت

---

(٥٢) « الفرست » Verste من مقاييس الطول الروسية وهو يســـاوى ١٠٦٧ م . أنظـــر
Oleg, p. 15, n. 1 et Glossaire des mots Russes, p. 345 Dans Oleg.

(٥٣) عن هذه الشجرة أنظر :
M. Jullien, S. J., L'arbre de La Vierge à Matarieh, Le Caire, pp. 105qq .

(54) Oleg, ch. II, p. 3 .

حجرا وسط الرمال ، فقامت بغسل وليـدها ولفافاتـه وهى جالسـة على هـذا الحجر وأرقـدته • وسرعان ما نمت شجيرات فى هـذا الموضع ، وانساب من هذه الشجيرات زيـت يشـفى ليس فقط المسـيحيين الذين يستخدمونه ، لكن أيضـا معتنقى الديانات الأخرى • ولازال هـذا الحجر وهذه الشجيرات فى موضعها حتى يومنـا هذا (٥٥) •

والطريق من هذا الموضع الى القاهرة يتطلب مسيرة نصف يـوم • على أيـة حال ، لقد وصلنا الى القاهرة قبل اسبوع من عيد الميلاد المجيد فى شهر ديسمبر(٥٦)، وذلك يـوم عيد القديس سبستيان (٥٧) St. Sébastien

وعلى هـذا استغرقت الرحلة من بروسة الى القاهرة مائـة يـوم (٥٨) •

أما عن مدينة القاهرة ،فهى مدينة كبيرة ، مترامية

---

(55) Oleg, chap. II, pp. 3 — 4 .

(٥٦) أى فى الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٤٦٥ م •

(٥٧) ولـد القديس سبستيان فى مدينة ناربون الفرنسية حوالى سنة ٢٥٠ م • وكان قائدا فى الجيش الرومانى على عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) ، وقد أخفى على الجميع اعتناقه المسيحية حتى يتمكن من خدمـة اتباعـه فى العقيدة . وعندما اكتشف أمره ، عوقب بالقتل جلـدا واستشهد سنة ٢٨٨ م • وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية فى ايامنا هـذه بيوم استشهاده فى العشرين من يناير من كل عام • ويعـد القـديس سبستيان شفيع السجناء • أنظـر Bouillet, p. 1733 .

(58) Oleg, chap. II, p. 4 .

الأطراف . بهـــا أربعة عشر الف شارع (٥٩) لكل شارع

---

(٥٩) فى درب Dopp, Le Caire Vu par Les Voyageurs Occidentaux Du Moyen Age, Le Caire, 1953, t. 26, p. 107 .
أربعة الآف شارع ودرب وليس أربعـــة عشر الف شارع . أنظـــر سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص ٨٤ وكذلك حاشية رقم ٧ . ويؤكد صحة الرقم الذى اورده ونقل عنه الاستاذ الدكتور عاشور ان الرحالة الروسى جريجوار الذى زار القاهرة سنة ١٥٤٧ م ذكر أن فى المدينة أربعة الآف وعشرة شوارع وسيرد ذكر تفاصيل رحلته فى الصفحات التاليـــة . وواضح أن الارقـــام مبالغ فيهـــا ، الا اننـــا نستشف منها مدى سعة المدينة واكتظاظها بالسكان . فقـــد فاقت القاهرة مثيلاتها من المـــدن فى أوربا والعالم الاسلامى . وأطنب الرحالة الاجانب سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين فى وصف القـــاهرة . وقال الرحالة اليهودى الثرى مشولام بن مناحم Meshullam Ben Manahem الذى زار مصر سنة ١٤٨١ م أن وصف مدينـــة القاهرة يحتـــاج الى اكثر من مجلد ، وأن عدد سكانها يبلغ نصف مجموع ســـكان رومـــا وميلان وبادوا وفلورنســـا وأربع مـــدن أخرى من أعاظم المدن الاوربيـــة . كذلك ذكـــر برنارد دى بريدنباخ انـــه لا يوجـــد مدينة أخرى فى العـــالم كلـــه تضاهى القاهرة فى كثرة سكانها واتساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع ســـكان ايطاليـــا لا يضاهون فى الكثرة القاهرة وحدها . (أنظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٢ — ٨٣) أما الراهب الفرنشسكانى جيهان تنـــو Jehan Thenaud الذى زار مصر سنة ١٥١٢ كمبعوث من قبل الملك الفرنسى لويس الثانى عشر للقـــاء السلطان الغورى ، فقـــد قال ان القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس ، اذ ذكر فى هذا المعنى :

« Le Caire Est Trois Fois Aussi Grand Que Paris »

أنظـــر :

Jean — Marie Carré, Voyageurs Et écrivains Français en Egypte, Le Caire 1956, t. I, pp. 3 — 4 .

أنظر أيضا سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٢ م .
وقـــد وافقه على ذلك الفارس الفرنسى جريفان افاجار Greffin Affagart الذى قال ان القاهرة مدينـــة عظيمة الاتســـاع ولا يوجـــد مثيل لهـــا ، وانهـــا تبلـــغ أكثر من ثلاثـــة أمثـــال باريس . اذ جـــاء فى هـــذا المعنى بالفرنسية القديمة

« La Grand Et non Pareille cité du Caire .... Bien Troys Foys Plus Grand Que Paris » أنظـــــر Carré, pp. 4 — 5 .

أما الرحالة البلجيكى جوس فان غستل الذى زار مصر فى عامى ١٤٨٢ — ١٤٨٣ م ،فقـــد أكد أن القاهرة اكبر مدينة فى العـــالم آنذاك . ففى هذا المعنى يقـــول : =

بابان وبرجان وحارسان من أعمالهما حراسة الشارع واضاءته ليلاً باشعال زيت المصابيح (٦٠) وفى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ، أما البعض الآخر فيضم ثمانية عشر ألفا (٦١) ولكل

= « La ville du Caire Est Certainement la Plus Grande Ville au Monde Que L'on connaisse » .

انظر

Joss Van Ghistele, Voyage En Egypte, 1482 — 1483, I.F.A.O., 1976, ch. 5, p. 16.

(٦٠) كانت شوارع القاهرة تضاء فى الليل بالمصابيح وتغلق ابوابها ، وتشدد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الازقة وغلق الدروب وتفقد اصحاب الارباع وتأديب المخالف ، ومن سار فى الليل لغير سبب مقبول قبض عليه . كذلك خصص بعض الأمراء والأجناد للطواف ليلا . انظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٤ . وقد لاحظ الرحالة الروسى فاسيلى جريجورو فتش بارسكى الذى زار مصر سنة١٧٢٦م أن شوارع القاهرة تضاء بالمصابيح طوال الليل ، وانه خلال هذه الفترة كان الحراس يتفقدون الشوارع والازقة للقبض على المجرمين واللصوص وأن من يقبض عليه يتم اعدامه دون محاكمة فى نفس مكان ارتكابه الجريمة . كذلك لاحظ بعين الفاحص المدقق ان شوارع القاهرة نظيفة وارجع ذلك الى كنسها ورشها بالمياه يوميا . ففى هذا المعنى ورد فى مصنفه

« Dans Les Rulles sont Allumées Des Lanternes Qui Brûient Toute la nuit. il est coutumier Qu'un Gardien Parcoure les Ruelles à Cause Des malfaiteurs. Si L'on Attrape Quelqu'un....on Lui Coupe La Tête Dans la Ruelle Sans jugement.... »

انظر

Barsky, Voyage du piéton Basile Crigorovitch Barski - Plaka - Alba, p. 79 .

(٦١) Oleg, Chap. II, p. 4 . ولا شك أن الارقام مبالغ فيها . ففى رحلة رئيس الرهبان جريجوار ذكر أن كل شارع يضم أربعة آلاف وعشرة مساكن مبنية من الاحجار . انظر حاشية رقم ٦٨ . ويعد الرقم الذى أورده رئيس الرهبان جريجوار أقرب الى الصحة الى حد ما .

شارع سوق كبير يكفى القاطنين به ، ويسد احتياجاتهم اليومية [٦٢] .

وأخـــيرا ، غادرنا مصر فى الســـابع عشر من ينــاير [٦٣] ، وهو يوم الاحتفال بوفاة القديس أبينــا وقديسنا انطوان [٦٤] « Antoine »

هذا ما أورده التاجر الروسى باسيل من سرد يتعلق بزيارته لمصر . ويحــوى الكثير من الأرقام التى فاقت الخيال والواقع ، خاصة ما يتعلق منهــا باحصاء شوارع القاهرة ومساكنها . وربمــا كان هدف باسيل

---

(٦٢) للتفاصيل عن الأسواق آنذاك أنظر : المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ١٦٤ . انظــر أيضــا سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٦ — ٨٨ .

(٦٣) فى السابع عشر من يناير سنة ١٤٦٦ م . انظر
Oleg, Chap. II, p. 4 .

(٦٤) يعتبر القديس انطوانيوس أول شخص فى مصر الوسطى لجــأ الى الصحراء من أجل التنسك . ولد فى سنة ٢٥١ ببلدة « قمن العروس » — مركز الواسطى محافظة بنى سويف — من والدين مسيحيين غنيين ، ربياه تربيـــة حسنة مع أختـــه ديوس ، فكان يواظب على قراءة الكتاب المقدس وذات مـــرة سمع الكاهن وهو يتلو فصل من انجيل متى يقول « ان أردت أن تكون كامـــلا فأذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء وتعـــال اتبعنى فيكون لـــك كنز فى السماء » (متى ١٩ : ٢١) فاعتبر كأنما هـــذه الآية موجهة اليه ، فبـــاع ما يملك من الأراضى وتصـــدق بثمنها على الفقراء ، وانعكف على الصلاة شاغلا نفســـه بالصـــوم والصلاة وقراءة الكتـــاب المقدس . ثـــم انشأ نظاما خاصا لتلاميذه ، اذ بنى لكل واحـــد منهم « قلايـــة » خاصـــة ينفرد فيها لعبادة وقضاء حاجياته . وبهذا النظام تكونت أول جماعة للرهبان . للتفاصيل أنظر ابراهيم اسحق فارس : مدخل الى العهد المسيحى الأول . القاهرة ١٩٨٧ — ص ١٢٨ — ١٣٠ ، رءوف حبيب : تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر — القاهرة ١٩٧٨ — ص ٣٧ — ٤١ ، منسى القمصى : تاريـــخ الكنيسة القبطية — القاهرة ١٩٨٢ — ص ٩٨ — ١٠٥ . زكى شنودة : تاريخ الأقباط — القاهرة ١٩٦٨ — ج ١ ، ص ١٩٨ — ٢٠١ . وأيضـــا
Bouillet, pp. 91 — 92 .

من هـذه المبالغة الواضحة ، ابراز الكثافة السكانية للعاصمة المصرية واظهار مـدى اتساعها ٠

الحجاج الروس فى القرن السادس عشر :

ـ رحلة جريجوار رئيس الرهبان سنة ١٥٤٧ م :

على أيـة حال ، مهـدت رحلتا جريثينيوس وباسيل الى مصر فى القـرن الخامس عشر السبيل لقيـام العـديد من الحجـاج الروس لزيارة الاماكن المقدسة بمصر وذلك فى القرن السادس عشر ٠ اذ حفل هـذا القرن بكتابات أربعة حجاج ، اهتم معظمهم فى كتاباته بسيناء وأديرتها والكنائس الأثرية بالقاهرة ٠

ففى عام ١٥٤٧ م ، عـاد جريجوار رئيس الرهبان الى روسيا بعـد زيارته لجبـل سيناء ٠ وأخـذ يصف ما شاهده فى مدينـة القاهرة لماكير Macaire ، رئيس اسـاقفة عموم روسـيا ، والذى يلى البطريرك فى مرتبتـه الدينية ٠ تـرك لنـا هذا الوصف فى سفر بعنـوان « نص رحلة رئيس الرهبان جريجوار الى جبل سـيناء وذلك سنة ١٥٤٧ » (٦٥)

Récit du hiéromoine Grégoire du Mt. Sinaî (1547).

جاء فى هـذا السـفر أنه :

« فى عام ١٥٤٧ (٦٦) ، فى السابع والعشرين من

---

(65) Khitrovo, Récit du Hiéromoine Grégoire du Mont sinaî (1547), p. 269 ; Oleg, Chap. III, p. 5.

(٦٦) فى الأصل « فى عام ٧٠٥٥ لآدم » هكذا كانوا يؤرخون آنذاك . اذ كان تأريخ السنين فى روسـيا يبـدأ مع الخليفة ، واستمر ذلك حتى سنة ١٧٠٠ . وعلى هذا ، فالعام الأول الميلادى يقابله عام٥٥٠٨ من الخليقة. وهكـذا عام ٧٠٥٥ يقابله عام ١٥٤٧ ميلادى . أنظر Oleg, p. 5, n. 2.

فبراير ، عاد رئيس الرهبان جريجوار من جبل سيناء • وقص على قداسة سيدنا ماكير Macaire رئيس اساقفة عموم روسيا أن فى مدينة القاهرة أربعة آلاف وعشرة شوارع (٦٧) ، ويضم كل شارع أربعة آلاف وعشرة مساكن (٦٨) مبنية من الاحجار • وفى وسط مدينة القاهرة ، نجد الضيعة التى أقام وعاش فيها سيدنا يوسف عليه السلام (٦٩) ، وهى تتساوى فى مساحتها مع موسكو (٧٠) • وفى هذه الصنيعة توجد كنيسة مكرسة للقديس نيقولا الثوماتورج (٧١) Nicolas le Thaumaturge ، حيث يقيم فيها القداس والمراسيم الدينية بطريرك الاسكندرية يواقيم (٧٢) Joachim

---

(٦٧) فى رحلة التاجر باسيل « أربعة عشر الف شارع » أنظر Le Pélerinage du Marchand Basile (1465 — 1466), p. 4 ; Khitrovo, le Marchand Basile, p. 244 .
أنظر أيضا حاشية رقم ٥٩ . علما بأن الرقم الذى أورده باسيل مبالغ فيه .

(٦٨) فى رحلة التاجر باسيل « وفى بعض هذه الشوارع خمسة عشر الف مسكن ، أما البعض الآخر فيضم ثمانية عشر الفا » . انظر Basile, p. 4. أنظر أيضا حاشية رقم ٦١ . ومن المعتقد أن الارقام التى أوردها رئيس الرهبان جريجوار — أقرب الى المنطق والعقل الى حد ما .

(٦٩) المقصود هنا القلعة . أنظر Oleg, p. 5, n. 3 .

(٧٠) عن مقارنة القاهرة بغيرها من المدن الاوربية انظر حاشية رقم ٥٩ .

(٧١) تتبع كنيسة القديس نيقولا طائفة الروم الارثوذكس ، وتقع على مسافة تناهز النصف كيلو متر من القلعة ، فى حى الحمزاوى . Oleg, p. 5, n. 4. ويعتقد أن القديس نيقولا كان اسقفا معاصرا للامبراطور قسطنطين الكبير . ويذكر انه عاش طفولة مثالية وخالية من الرذيلة لذا اتخذ شفيعا للشباب واحتل مكانة رفيعة الشأن فى روسيا فخصصوا له السادس من ديسمبر من كل عام للاحتفال بعيده . ومما يذكر انه توفى سنة ٣٤٢ م . انظر Bouillet, p. 1347 .

(72) Le Hiéromoine Grégoire, p. 5.

ـ رحلة الراهب سوفرونيوس سنة ١٥٤٧ م :

هذا عن محتوى أول نص لحاج روسى يرجـــع الى القرن السادس عشر ، تـــلاه روايـــة ثانية كتبهـــا الراهب سوفرونيوس Sophronius وهو من رهبان ديـــر القديس ســـابا Sabbas ، قدمها أيضا لمـــاكير Macaire رئيس اساقفة عموم روســـيا . كتب سوفرونيوس روايتـــه فى الســـابع من يوليـــو سنة ١٥٤٧ [٧٣] تحت عنوان « رواية الراهب سوفرونيوس من ديـــر القديس ســـابا المبارك وذلك فى سنة ١٥٤٧ م » [٧٤] .

Récit du moine Sophronius du couvent de st Sabbas - le - Béni, 1547

جاء فيهـــا :

« تستغرق المســـافة بـــرا بين القدس وجبل سيناء اثنى عشر يوما . ومن بيت المقدس الى القاهرة اثنى عشر يوما كذلك »[٧٥] .

أما باقى نص الرحلة ، فيتعلق بوصف ديـــر القديس . ســـــابا فى القـــدس .

ـ رحلة التـــاجر باسيل بوسنياكوف سنة ١٥٥٨ م :

وعلى هذا كانت رواية الراهب سوفرونيوس شـــديدة الايجاز ، ضئيلة الأهميـــة ، علمـــا بـــأن الحولية الثالثة وهى للتاجر باســـــيل بوسنياكوف والتى تعود أيضـــا الى القرن السادس عشر ، شـــديدة

---

(٧٣) فى الاصل سنة ٧٠٥٥ لآدم . عن تفسير ذلك أنظر رقم ٦٦ .

(74) Khitrovo, Récit du moine Sophronius du Couvent de St. Sabbas - le - Béni, p. 275 ; Oleg, le moine Sophronius, p. 7 .

(75) Khitrovo, p. 275 ; Oleg, p. 7 .

الاسهاب عظيمة الاهمية ، بل بعد أهم وأدق مصنفات الحجاج الروس على الاطلاق التى ترجع الى أواخـــر العصور الوسطى •

اكتشف مخطوط رحــــلة التـــاجر الروسى باســـيل بوسنياكوف Basile Posniakoff وعنوانه « حج التاجر باسيل بوسنياكوف » (٧٦) le Pélerinage du marchand Basile Posniakoff سـنة ١٨٨٤ م (٧٧) ، فأفقـــد رحلة تريفون كوربئينيكوف Triphon Korobeînikoff شهرتها وأهميتها التى حظيت بهـــا خلال أكثر من قرنين من الزمان قبـــل اكتشـــاف مخطوط بوسنياكوف • اذ اتضح أن تريبنون نقـــل مـــادة رحلته نـــقلا حرفيا عن بوسنياكوف •

ومما يذكـــر أنـــه فى عام ١٥٥٨ م ، كلف كل من التزار Tzar ايفـــان فاسيليفتش (٧٨) Ivan Vasiliévitch الشهير بايفان الرهيب Ivan le terrible ، رئيس الأساقفة ماكير Macaire ، والمطـــران

(76) Khitrovo, le Pélerinage du marchand Basile Posniakoff Aux Lieux Saints de L'Orient, 1558 - 1561, pp. 285 sqq ; Oleg, Basile Posniakoff 1558, pp. 9 sqq .

(77) Oleg, p. 30 .

(٧٨) اعتلى ايفـــان فاسيليفتش العرش فى سن الرابعة وذلك سنة ١٥٣٣م فخضعت روسيا لوصاية والدته التى خاضت حربا ضارية ضد كبـــار رجال الدولة . ومنذ عام ١٥٤٤م ، تولى ايفـــان الرابـــع مقاليد الأمور ، فأحرز انتصارات متلاحقة على التتار والبولونيين والسويديين . الا أنـــه ارتكب أعمالا اتسمت بالوحشية ضد شعوب البلاد المقهورة بل وضد إتباعـــه أيضا . ووصلت بـــه الوحشية أقصاها حين قتل بيديـــه ابنـــه الإكبر فلقبـــه الشعب منذئذ بلقب ايفـــان الرهيب . ومع ذلك ، فقد شهدت روســـيا فى عصره ازدهارا اقتصاديا وحضاريا ملموسا . وقـــد مارس ايفـــان حكما اوتوقراطيا مطلقـــا الى أن توفى سنة ١٥٨٤ م . أنظـــر Catherine Durand - Cheyney, Ivan le Terrible, pp. 12 sqq ; Vallotton, ivan le Terrible, pp. 21 sqq ; Bouillet, p. 941 .

بيمن مطران نوفجورود [٧٩] Pimène de Novgorod والتاجر باسيل بوسنياكوف Basile Posniakoff ورئيس شماسة نوفجورود جويننـاد دى نوفجورود Guénnade de Novgorod وكبير أشراف بسكوف [٨٠] Pskov المدعـو كـوم سلطانوف Come Saltanoff بالرحيل الى الشرق • وحمل الحجاج الثلاثة معهم رسالة من ايفـان الرهيب الى يواقيـم Joachin بطريرك الاسكندرية •

وفى الطريق الى القسطنطينية ، توفى جويننـاد ، فواصل بوسنياكوف وسلطانوف رحلتهما وقاما بزيارة الأراضى المقدسة ، ثم توجها الى مصر حيث سلما البطريرك رسالة الامبراطور الروسى [٨١] •

وفى سرد مشاهد رحلته ، زودنا بوسنياكوف بنص الرسالة • اذ بدأها ايفان بتحية البطريرك وأخبره أنـه تلقى رسـالته التى أرسلها اليـه مع رهبان جبل سيناء • وطلب من البطريرك أن يدعو لـه فى صلواته • وأخبره أنـه أرسل مع جويننـاد كبير شمامسة كنيسـة القديسة صوفيـا St. Sophie والتاجر باسيل بوسنياكوف ألف قطعـة ذهبية وفـراء زبلين مغطى بالقطيفة • أخبره ايضـا فى رسالته أنـه

---

(٧٩) نوفجورود أى « المدينة الجديدة » تقع على بعد ١٩٣ كم جنوب شرق سان بطرسبرج . كانت اسقفية يونانية أى تابعـة لطائفة الـروم الارثوذكس . وتعد من اقـدم مدن روسـيا ، اذ اسسها السلاف فى القرن الخامس الميلادى . وقد شهدت نوفجورود ازدهارا تجاريا وازدحاما سكانيا . وبعد حربين ضاريين — وذلك فى سنتى ١٤٧١ و ١٤٧٧ م تمكن دوق روسيا ايفـان الثالث من اخضاعها نهائيا لسيادته . للتفاصيل انظر
Bouillet, p. 1363 .

(٨٠) بسكوف Pskov او بلسكوف Pleskov مدينة فى روسيا الاوربية . وكانت بها اسقفية يونانية ومحكمة مدنية وجنائية ومدرسـة لاهوتية . بنيت هذه المدينة فى القرن العاشر الميلادى وانتشرت فى ربوعها الكنائس وخضعت لفازيلى الرابع (١٥٠٣ — ١٥٣٣م) سنة ١٥٠٩ . وشهدت المدينـة ازدهارا تجاريا حتى انها نافست نوفجورود . للتفاصيل أنظر .
Bouillet, p. 1557 .

(81) Oleg, p. 9 ; Khitrovo, pp. 285 — 186 .

أرســل الى رهبان جبل سيناء مبلغ ألف قطعة ذهبية أخرى لمواجهة متطلبات الديــر من مصاريف [٨٢] •

والخطاب صادر عن القصر الامبراطورى فى العاصمة موســكو وذلك سنة ١٥٥٩ [٨٣] من شهر سبتمبر •

وبمجرد وصــوله الى الاسكندرية ، توجــه بوســـنياكوف الى البطريرك لتحيته ، وســلمه الرسالة سالفة الذكر • فأخذ البطريرك يســأله عن أحوال الامبراطور ايفــان ومسيحيى روســيا وكبــار اســاقفتها وأقطابها [٨٤] • والذى يجــذب انتبــاه الباحث ســؤال البطــريرك عن أحــوال اليهود فى روســـيا • فأجابــه باســيل أن الامبراطور ايفــان حــرم الاتجــار مع اليهود ومنعهم من دخــول أراضيه ففرح البطريرك بعملية طــرد اليهــود البغاة وشــبه ذلك بطــرد الذئاب من قطيع المسيح • وأخبر البطريرك التــاجر باســيل أن المسيحيين فى مصر يعانــون الأمرين من أذى ومضايقات هــؤلاء اليهود لهم [٨٥] • كذلك ســـــأله البطريرك ما اذا كان فى روســـــيا هراطقة من الاقباط والأرمن وغيرهم من الهراطقة ، ويقصد بذلك اتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المســيح ، الذين رفضوا مقررات مجمع

---

(82) Basile Posniakoff, pp. 10 — 11 .

وفراء الزيلين ، هو فراء من حيوان مفترس من السموريات يكثر فى سيبيريــا .

(٨٣) فى الاصل سنة ٧٠٦٧ لآدم ويقابلها سنة ١٥٥٩ م • وبخصوص التقويم الروسى المعمول به آنذاك وكيفية تحويل سنواته الى السنة الميلادية المعمول بهــا فى أيامنــا هذه انظر حاشية رقم ٦٦ •

(84) Basile, p. 11 .

(85) Basile, p. 13 .

خلقدونية سنة ٤٥١م • فأجابه باسيل بأنـــه لا كيان لهؤلاء الهراطقة في روســـيا (٨٦) •

على أيـــة حال ، نستخلص من هـــذا الحديث استمرار التعصب المذهبي الأعمى الذي ورثه الروس عن البيزنطيين بعد اســـدال الستار على امبراطوريتهم الشامخة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أظهر هذا الحوار العداء المستحكم بين اليهود والمسيحيين في مصر آنـــذاك • ونســـتدل على ذلك أيضـــا بقصة أوردها باسيل تحت عنوان « روايـــة البطريرك يواقيم بطريرك الاسكندرية (٨٧) » « Récit du Pape et Patriarche Joachim d'alexandrie » جاء فيها أنه في عهد أحد سلاطين المماليك الجراكســـة ويقصـــد طومان باي آخـــر ســـلاطين المماليك (٨٨) — عاني المسيحيون الأمرين على يديه لتفضيل اليهود عليهم • وكان من بين المقربين اليه أحد الأطباء اليهود • ويذكر البطريرك أن هذا الطبيب اليهودي تميز بالمكر والدهاء • اذ خطر على باله افنـــاء كل مسيحيي مصر • تحقيقا لهدفـــه هـــذا ، مثل امام الســـلطان المملوكي طومان باي (٩٢٢ — ٩٢٣ هـ/١٥١٦ — ١٥١٧ م) وقال لـــه •

« يا جلالة السلطان ، في سلطنتك مصر جموع من المسيحيين ، لا يستحقون الحياة على اراضيك لبطـــلان عقيـــدتهم • اجبرهم اما على اعتنـــاق الاسلام أو اليهودية » •

فأجابـــه الســـلطان :

« من السهل اجبارهم على اعتناق الاسلام ، لولا بطريركهم العجوز الذي أخشـــاه » •

---

(86) Basile, p. 13 .
(87) Basile, pp. 13 — 17 .
(88) Basile, p. 13 , n. 1 .

فـــرد عليـــه اليهودى :

« لا تخشى هــذا العجوز يا جــلالة الســلطان ،
سأعد لـــه ســما زعافا ، سيتناول منـــه نصف ملعقة ،
وبعدها سوف لا يحيا اكثر من ساعة » •

فأجابـــه الســلطان :

« اذا أتيت عليـــه ، فســأجبر المســيحين عــلى
اعتناق الاسلام ، وسأقتل من يمتنع عن اعتناقه » •
وأصدر السلطان أوامره باحضار البطريرك ، فمثل أمامه •

فقال الطبيب اليهودى للبطريرك :

« يا شيخ ، تخلى عن عقيدتك واعتنق اما الاسلام
واما اليهودية عقيدتى الحقة ، فعقيدتك ليست الا عقيدة
باطـــلة » •

فأجابـــه البطريرك :

« ســوف لا نتخــلى عن عقيدتنـــا الارثوذكسية
الصحيحـــة • وســـوف لا نعتنـــق لا الاســــلام ولا
اليهودية » [(٨٩)] •

فقال لـــه اليهودى فى الانجيل :

« يحملون حيات وان شربوا شيئا مميتا لا يضيرهم
ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون » [(٩٠)] •

اذن « أيمكنك أن تشرب ســــما مميتا حتى تثبت
صدق ما جاء فى عقيدتك ؟ » •

---

(89) Basile, pp. 13 — 14 .

(٩٠) مرقس ١٦ : ١٨ •

فأجابـــه البطريرك :

« أنا مستعد للموت فى سبيل المسيح وعقيـــدتى المسيحية الارثوذكســـية » •

فأخذ الطبيب اليهودى فى اعداد الســـم • اما البطريرك ، فقـــد التف حوله مسيحيو مصر وانهمكوا فى الصلاة ليـــل نهار وصـــام البطريرك اسبوعا بكامله ولم ينم الا قليـــلا •

وفى يوم احـــد وهو الموعد المحدد ، أى بعد مضى اسبوع على لقـــاء الطبيب اليهودى ، توجـــه البطريرك الى البلاط السلطانى الذى يبعـــد مسافة ثلاثة فرست [٩١] Verstes (الفرست = ٠٦٧ر١ كم) تقريبا من كنيسة نيقولا الثوماتورج العظيم [٩٢] Nicolas Le Thaumaturge وســـار فى ركابه أتراك وعرب ولاتين واقبـــاط وموارنة وأريوسيون ونساطرة ويعاقبة وأناس من مختلف الديانات [٩٣].

فأعطاه اليهودى كأســـا مليئـــا بســـم فتـــاك قائلا لـــه •

« خـــذ هـــذا الكأس واشرب ما بـــه ! اذا كانت عقيدتك حقة ، ستسلم من أى أذى ، أما اذا كانت خلافه ذلك ، ستتجرع كأس المـــوت ! » •

فشرب البطريرك الكأس عن آخره دون ان يصـــيبه أذى • ثم قال للســـلطان :

« أريـــد بعضـــا من المـــاء » •

---

(٩١) عن الفرست • أنظر حاشية رقم ٥٢ •

(٩٢) عنها أنظر حاشية رقم ٧١ •

(93) Basile Posniakoff, pp. 14 — 16 .

فأتــوا اليــه بقليل من المــاء ، فصــبه فى الكأس وقدمـــه الى اليهودى ليشربه ، فرفض • فطلب من السلطان أن يكون قاضــيا عادلا • ويأمــر اليهودى بشــرب المــاء وليس السم • فأصــــدر الســلطان أوامــره بذلك • فشرب اليهودى فتوفى بعد مضى نصــف ساعة • ومنــذ ذلك الحين عامل السلطان المسيحيين بالحسنى • أمــا البطريرك ، فقــد احتل كرسى البطريركية لمــدة ســتة عشر عامــا بعد تنــاوله هــذا السم الفتــاك » (٩٤)

على ايــة حال ، نستشف من هــذه القصة الطريفة المختلقــة والتى لم يــرد ذكر لها فى كافــة المصــادر الاســلامية المعــاصرة العداء الضارى بين اليهود المسيحيين فى مصر ، ومحاولة اليهود التقرب من الســلطان المملوكى للنيــل من المسيحيين والقضاء على عقيدتهم • الا أن محاولاتهم ذهبت ســدى • اذ تحــول السلطان طومای بای عنهم لصــالح المسيحيين •

بعد ذلك ، تطرق البطريرك الى الاحداث الخطيرة التى تعرضت لها مصر نتيجــة اســدال الســتار على حــكم سلطنة المماليك الجراكســة وما اعقب ذلك من احتــلال عثمــانى لربوع البــلاد • اذ أورد فى هــذا الصدد :

« سار السلطان العثمانى سليم (٩٥) من القسطنطينية الى القاهرة ، كان ذلك سنة ٧٠٢٢ لآدم (٩٦) (أى سنة

(94) Basile Posniakoff, pp. 16 — 17 .

(٩٥) فى الاصل سليمان وصحة ذلك السلطان سليم الأول العثمانى ، اذ تمكن من اسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ثم موقعة اليدانية سنة ١٥١٧م •

(٩٦) ٧٠٢٢ لآدم ويقابلها سنة ١٥١٤م وصحة ذلك ٧٠٢٥ لآدم أى سنة ١٥١٧ م • أنظر حاشية رقم ٩٥ •

١٥١٤ م وصحتها سنة ١٥١٧ م) ، فاستولى على هذه المدينة ، والقى القبض على السلطان طومان باى وقـام السلطان العثمانى باعـدام السلطان المملوكى وهو فى ملابس السـلطنة كان ذلك فى اطراف الميدان الكـبير على الابـواب الحديدية » (٩٧) •

ويذكر باسيل ان البطريرك شـغل كرسى البطريركية منذ خمسة وثمانين عاما • اذ تـم تنصيبه فى ديـر سـيناء ، وامضى فيه اثنى عشر عاما ، وتولى اقامة القداس فى القدس خلال ثلاثة سنوات (٩٨) •

ثم تحدث البطريرك عن كنيـسة القديس نيقـولا St. Nicolas الكائنة فى القاهرة(٩٩) ، فأورد قصـة طريفـة ومختلقة هى أيضـا مفادها أن السلطان طومان باى أمر بالاستيلاء عليها وتحويلها الى حمام• فأصيب البطريرك بحـزن بالـغ وأخـذ فى الصلاة مع المسيحيين فى كنيسة القديس نيقـولا • ويذكر البطريرك ان القديس نيقـولا ظهر للسـلطان فى نفس الليـلة وأمـره باعادة كنيسته الى البطريرك • فنفـذ السـلطان مطلبـه ولازالت الكنيسـة تقـام فيهـا الشعائر الدينيـة لحظـة رحلة التاجر الروسى باسيل ورفيقه سلطانوف (١٠٠) •

ويواصل باسيل بوسنياكوف سـرد أخبار رحلته الى مصر فيقول :

« وفى اليوم التالى أمرنا البطريرك بالذهاب معـه لزيارة القاهرة القديمة (١٠١) التى تبعد مسافة ثلاثـة

---

(97) Basile Posniakoff, p. 17 et n. 1 .

(98) Basile Posniakoff, p. 17 .

(٩٩) عنها انظر حاشية رقم ٧١ •

(100) Basile Posniakoff, p. 18 .

(١٠١) أى الفسطاط • أنظر
Joos Van Ghistele, Voyage en Egypte, p. 18, n. 32 .
ولمزيد من التفاصيل عن أهميتها آنذاك أنظر
Joos Van Ghistele, ch. 14, pp. 46 — 50 .

فرست (١٠٢) Verstes ، حيث زرنا كنيسة اغريقية كبيرة للقديس الشهيد مار جرجس St. Georges مقامة فى دير للراهبات (١٠٣) ، وكنيسة أخرى مخصصة للقديسة مريم (١٠٤) • وكنائس مسيحية كانت موجودة

---

(١٠٢) أى ١٠٢ر٣ كم •

(١٠٣) فى سنة ١٦٥٢ م ، أى بعد ما يناهز القرن ، زار الرحالة الفرنسى تيفينو Thévenot هذه الكنيسة والدير الملحق بها ، وزودنا بوصف مسهب لهما • أنظر :

Thévenot, Voyages Tant En Europe qu'en Asie et en Afrique Amsterdam, 1727, 2 vol., II, p. 438 ; J. - M. Carré, Voyageurs Et écrivains Français En Egypte, I.F.A.O., 1956, T. I, p. 26 .

وكانت كنيسة سان جورج الاغريقية تقوم على قمة برج مستدير محلاة بالقرميد السوررى والمصابيح المصنوعة من الفضة • وكان البرج الرومانى أكثر امتاعا من الكنيسة المقامة عليه ، وذلك للبئر الذى فى الوسط والدرجات الكثيرة ، والحجرات الغربية التلألئة • أنظر : لينبول : سيرة القاهرة — ترجمة حسن ابراهيم حسن — القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٦٧ •

(١٠٤) يسميها الرحالة البلجيكى جوس فان غستل Notre - Dame de La Colonne أى « كنيسة العذراء المعلقة » أنظر Voyage en Egypte, ch. 14, p. 50, et n. 105 . والكنيسة المعلقة بين برجين رومانيين مرتفعين فوق باب الطراز القديم منقوش عليه نسر • وهذه الكنيسة جديرة بالملاحظة وتثير الانتباه لعدة أسباب ، لأنها أقدم كنائس مصر القديمة على الاطلاق ، ولانها خالية تماما من القباب • ولهذه الكنيسة مزايا أخرى ، فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس ، بل هنالك منصة مرتفعة أمام السقف المنخفض فى الجهة الشرقية • وهذه المنصة تؤدى الغرض الذى يؤديه الهيكل ، على حين نرى السقف مضاعفا فى الجانب الشمالى، والحاجز المنقوش فى الجانب الشمالى مرصع بالزخارف المصنوعة من العاج الرقيق مما يزيد فى بهجة المكان وجماله حينما كانت تضاء المصابيح المعلقة خلفه • أما المنبر ، فقد نقش نقشا بديعا رائعا • وهو مقام على خمسة عشر عمودا دقيقا صنعت على الطراز الاسلامى، مقسمة الى سبعة أزواج • أقيم أحدها فى المقدمة • أنظر : سيرة القاهرة، ص ٦٧ — ٦٨ •

منذ زمن بعيد(١٠٥) مثل كنيسة القديس سرجيوس المعروفة « بأبى سرجـة » Serge (١٠٦) وكنيسـة الشـهيد بككوس Bacchus وكنيسة صعود العذراء وكنيسـة القديسة بربارة Barbe وأخيرا كنيسة شـهداء السيد المسيح(١٠٧)التى تتبع حاليا البطاركة الاقباط(١٠٨)»

---

(١٠٥) ذكر جوس فان غستل أن الكنائس الفخمة فى القاهرة ومصر القديمة بلغت ٢٥ كنيسة . أنظر

Voyage en Egypte de Joss Van Ghistele 1482 — 1483, p. 48 .

(١٠٦) الى جانب الكنيسة المعلقة وكنيسة القديسة بربارة ، لا تزال كنيسـة ثالثة جديرة بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعـة وبهـاء • وهذه هى « كنيسة القديس سرجوس » أو « أبى سرجـة » ، وهى التى يتردد عليها الناس اكثر من غيرها ، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت فى ناووسها حينما أتت الى مصر . ومن المؤكـد أن هـذا الناووس أقدم من الكنيسة التى تعلوه بقرون كثيرة ، اذ يرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادى . والكنيسـة نفسها تتميز بستارة بديعـة الصنع ، وعلى مقربـة منها مثل واضح للنقوش القبطية القديمة التى تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة . وثمة مثل آخـر لهذه الصور المحفورة نـراه فى كنيسة القديسـة بربارة . أنظر : سيرة القاهرة ، ص ٦٧ . أنظر أيضـا Vorage En Egypte, p. 49. وذكر جوس فان غستل أن هـذه الكنيسة كانت تسمى آنذاك « La Cana Babylonis » أى « كهف بابيلون » كذلك أطلق عليها اسم « Sainte Marie - de - la Cave » ، أنظر Voyage en Egypte, p. 49 Et n. 102, وخصص الفصل الخامس عشر من مصنفه للحديث عن معجزة حدثت فى هذه الكنيسة نستشف من خلالها العداء الذى وصل اقصاه بين المسيحيين واليهود ومحاولة اثبات انتصار المسيحيين على اليهود فى نهاية الامر . والقصة تختلف عن القصة التى سردها باسـيل بوسنياكوف نقلا عن البطريرك يواقيم . أنظـر

Joss Van Ghistele, ch. 15, pp. 51 — 53 .

(١٠٧) أمدنا الفريد بتلر لأول مرة ببحث مبنى على داسة علمية دقيقة عن الآثار القديمة للكنائس القبطية فى مصر . انظر

A. J. Butler's, Ancient Coptic Churches of Egypt, t. I, pp. 65 - 86.

(١٠٨) يرجع ذلك الى الخلاف المذهبى بين كنيسة اقباط مصر وكنيسة الروم الارثوذكس التى يتبعها الروس .

على حد قول بوسنياكوف[١٠٩] •

ثم يعود التاجر الروسى باسيل ثانية الى وصف القاهرة القديمة فيقول انها حاليا كالصحراء • لا يسكنها الا بعض المصريين المسنين والمتشردين • أما الاتراك والمسيحيون فقد تخلوا عن الاقامة فيها • وكانت قلعتها [١١٠] مبنية من الاحجار ، لكنها انهارت وتقوضت • الا أن الباب الذى دخلت منه القديسة العذراء مريم وبصحبتها السيد المسيح وسيدنا يوسف حين هروبهم من أورسليم ، هذا الباب لازال سليما وقائما[١١١] •

ويعاود باسيل حديثه عن المعالم الدينية فى القاهرة القديمة فيقول :

« أمضينا أربعة أيام فى القاهرة القديمة بصحبة البطريرك ، ومنها توجهنا نحو دير القديس أرسانيوس[١١٢] St. Arsène • والمسافة بين هذا الدير والقاهرة سبعة فرست [١١٣] Verstes • وقد

---

(109) Basile Posniakoff, p. 18 .

(١١٠) المقصود هنا قلعة بابيلون الرومانية . وعنها أنظر .

E. Loukianoff, la Forteresse Romaine du Vieux - Caire, Dans B.I.E., le Caire, 1952, t. XXXIII, p. 285.

(111) Basile Posniakoff, p. 19.

(١١٢) يقع هذا الدير فى ضواحى المعادى جنوب القاهرة . أنظر .

Basile Posniakoff, p. 18, n. 2.

وعن القديس ارسانيوس أنظر زكى شنودة : تاريخ الأقباط ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(١١٣) أى ٧٫٤٦٩ كم .

تولى القديس أرسين (١١٤) Arsène تربية ابنى الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥ م) وهما هونوريوس Honorius وأركاديوس Arcadius • ويقع دير أرسين على جبل حجرى شاهق الارتفاع ، حفرت فيه مغارات حيث كان يعيش النساك • والدير آية من آيات الجمال ، به صوامع للراهبان شاهقة الارتفاع وواسعة ، مبنية من الاحجار • والدير لا يقيم فيه أحد بسبب العرب(١١٥) » على حد زعمه •

وينتقل باسيل بعد ذلك الى الحديث عن رحلته الى جبل سيناء فيقول :

« أمضى البطريرك أسبوعا فى القاهرة ، وفى يوم السبت بعد عيد القديس ديمترى (١١٦) St. Dimitri رحلنا معا الى جبل سيناء • فاستأجرنا جمالا للوصول الى هناك ، ودفعنا لأصحابها قطعة من الذهب عن كل شخص • فحمل كل جمل رجلين ، وأخذ كل فرد معه غذاءه وماءه فى قرب مصنوعة من الجلد •

---

(١١٤) ولد فى روما سنة ٣٥٠ م واختاره الامبراطور ثيودوسيوس لتربية هونوريوس وأركاديوس. الا أنه ضاق من العيش فى البلاط الامبراطورى، فانسحب للاقامة فى أحد أديرة مصر . وتعد اخلاقه مثالا يسير على منواله كافة الرهبان . وتوفى القديس أرسين عام ٤٤٥ م عن عمر يناهز الخامسة والتسعين . ويحتفلون بعيده كل عام فى التاسع عشر من شهر يوليو . أنظر : Bouillet, p. 121 .

(115) Basile Posniakoff, p. 19.

(١١٦) يحتفلون بعيد القديس ديمترى فى السادس والعشرين من أكتوبر من كل عام . أنظر : Basile Posniakoff, p. 20. n. 3.

كل هذا كان يزن اكثر من عشرة بـــود (١١٧) Poudes
كذلك حمـــل كل شخص قنطـــارا (١١٨) Kantar
من الخبز الجاف ، علما بأن القنطار يساوى ثلاثـــة
بـــود على حـــد قول باسـيل (١١٩) •

وللوصول الى جبل سيناء ، استغرقت الرحلة اثنى
عشر يـــوما من الســـير على ظهور الجمال • ومنذ تركنا
القاهرة حتى وصلنـــا الى ســـيناء سرنا عبر صحـــراء
خاويـــة لا وجـــه للمقارنة بينهـــا وبين صحراء روسيا ،
اذ ليس بهـــا لا غابات ولا أعشاب ولا نبـــات ولا ماء •
فقـــد سرنا لمـــدة ثلاثة أيـــام دون أن نـــرى شـــيئا
على اطلاق ما عـــدا رمالا واحجارا • وفى اليـــــوم
الرابع من رحيلنـــا لمحنـــا البحـــر الاحمـــر الذى عبره
ســـيدنا موسى بصحبة ســـتمائة وســـتين الفـــا من
اليهـــود (١٢٠) ، بينما غرق فرعون مصر بكل جنوده •
والملاحظ أن العرب يطعمون جمالهم بالفـــول الجـــاف

---

(١١٧) البـــود يـــزن ٣٨ر١٦ كجم . أنظر :
Posniakoff, p. 20, n. 4.

(١١٨) القنطار يـــزن ٩٢٨ر٤٤ كجم . أنظر
Posniakoff, p. 20, n. 5 .

(١١٩) هـــذا القول تقريبى وصحة ذلك أنظر حاشية رقم ١١٨ .

(١٢٠) التوراة مليئة بتفاصيل يصعب تصديقها . مثال ذلك ما جاء بهـــا من عـــدد الاسرائيليين الذين خرجوا من مصر يبلـــغ ستمائة ألف أصبحوا بعد أربعين سنة أربعين ألفا . ولقد لفت العالم فلندرز بيترى النظر الى أن أرض جوشن بمصر التى قيل أن الاسرائيليين عاشوا بها لا تتحمل أكثر من ايواء اثنتى عشرة الف نسمة . واستنتج من ذلك أن هجرة ستمائة الف رجل وعائلتهم وعتادهم واقعـــة لا يمكن قبولها منطقيا . أنظـــر :
F. Petrie, Egypt And israel London, 1931 p. 41.

ولا يسـقونهم المـاء الا كل ثلاثـة أيـام » (١٢١) .

ثم خصص بوسنياكوف فصـلا عنوانه « عبور الاسرائيليين » « Du Passage des Israélites » سرد فيه قصة عبور سيدنا موسى للبحر الاحمر ، وثورة الاسرائليين عليه ، ورغبتهم فى العودة الى مصر . ثم غـرق فرعون وجنوده فى ميـاه البحـر . وأشـار بوسنياكوف الى قيامهم باقتفاء أثر سـيدنا موسى واليهود . وأخـيرا ، أشـار الى وصولهم الى ديـر جبل سيناء (١٢٢) قائلا :

« وصلنا أخيرا الى دير جبل سـيناء ، فاستقبلنا رئيس الاساقفية والاسـاقفة والقسـاوسة والرهبـان استقبالا حافـلا ودخلنا الكنيسـة وكأننـا دخلنـــا الجنـة . اذ كرسـت لتجلى سـيدنا يسـوع المسيح. ثم شـاهدنا رفات القديسـة الشهيدة كاتـرين (١٢٣) ،

---

(121) Posniakoff, p. 20.

(122) Posniakoff, pp. 21 — 22.

(١٢٣) قيل أن كاترين فتـاة من عائلة نبيلة ثرية ، كان عمرها ثمانى عشرة سنة فى عام ٣٠٥ م حينما تقدمت للقيصر مكسمينوس دايا (٣٠٥ — ٣١٣ م) ولامتـه على جرائمه . ثم لم تقف عند هذا الحد بل سعت الى اقنـاع بعض العلمـاء فاعتنقوا المسيحية . فما كان من الطاغيـة الا أن أمـر بحرق اولئـك العلمـاء . أما كاترين ، فقد أمر بتعذيبهـا ، فتحملت كل أنواع الآلام الى أن اسـتشهدت بقطـع رأسها وذلك فى الخـامس والعشرين من نوفمبر سنة ٣٠٥م . ولمـا انتهى عصر اشهداء ، نقـل الرهبان جسـد الشهيدة الى سيناء فى الجبل الذى يحمل اسمها . وظل هناك حتى القرن الخامس حين عثر عليـه ونقل الى الكنيسة التى بناهـا الامبراطور جستنيان . وكاترين معناها بالاغريقية (الطاهرة) . ومن أروع آثار دير القديسة كاترين ذلك التابوت الفضى الذى بعثت به روسـيا الى الديـر لحفظ رفات القديسة كاترين بداخله . وعليـه شكل يمثـل القديسـة وقد طعم بالذهب والاحجار الكريمـة . انظر : Bouillet, p. 357. انظـر أيضـا : عزيز سوريال عطيـة : الفهارس التحليلية لمخطـوطات طور سيناء العربية ، ج ١ ، لوحـة ٤ ، ص ٣٣ ، جوزيف نسيم يوسف : سـيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى ، ص ١٤١ ، عبده مباشـر : سـيناء ، ص ١٥٣ — ١٥٥ .

ورأينـا كنيسة « العليقة المشتعلة » (١٢٤) والتى اقيمت فى الموضع الذى كلم اللـه فيه موسى ، وزونا رفـات القديسين الذين استشهدوا فى سـيناء والطور (١٢٥)

ويحوى دير سيناء (١٢٦) خمسـا وعشرين كنيسة (١٢٧) . ويقع هـذا الدير بين جبلين وبه ثلاثمائة صومعة كلهـا مبنيـة من الأحجار ، ويحيط بالديـر أيضـا سـور حجرى (١٢٨) . ويتصدر باب دخولـه

---

(١٢٤) أنظـر حاشية رقم ١٠ .

(١٢٥) عرفت أرض الطور منذ القـدم باسم « ريثـو » Raithou هكذا وردت فى مصنفات الرحالة الروس وغيرهم . كذلك اطـلق على سكان الطـور اسم « شـاسو » . أنظر :

Basile Posniakoff, P. 24, n. 1.

والطور فى اللغـة يعنى الجبل الذى يكسـوه الشجر . أنظر ياقوت : معجم البـلدان ، ج ٣ ، ص ٥٦ ، البغدادى : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ ، ابن سعيد المغربى : كتـاب الجغرافيا — تحقيـق اسماعيل العربى — الجزائر ١٩٨٢ ، ص ١٥١ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ و ٣٨٧ .

(١٢٦) يقع الدير على سفح قمـة جبل طور سيناء ، على أحـد فروع وادى الشيخ ، ويرتفع عن سطح البحـر ٥٠١٢ قدمـا . ويقـال أن الديـر يقع فى نفس المكـان الذى كلم الله فيـه موسى عليه السلام . وبنـاء الدير اشبه بحصن من حصون العصور الوسطى ، فالسور الخارجى سـور حصين ، حجارة اجزائـه السـفلى من الجرانيت ، وترجع الى أيام الحصن الذى أمـر جستنيان بتشييده ليحتمى الرهبـان بداخـله ، لهـذا أقيم الدير على نمط الحصون الحربية . أنظر فتحى رزق : رباعية سـيناء ، ص ٢٨٦ .

(127) Basile Posniakoff, pp. 23 — 24 .

(١٢٨) للدير سور ضخم طولـه ٨٥ مترا ، وعرضـه ٧٥ مترا ، ومتوسط ارتفاعه يبلغ من ١٢ الى ١٥ مترا ، وسمك الحائط متران وربع . وقد بنيت داخل السور عـدة كنائس صغيرة للعبـادة ، وقـد حدثت فيـه ترميمات كثيرة على مـدى العصور وعلى الاخص فى السور الشرقى =

مدفعـــان (١٢٩) ويقيم بديـــر جبل ســـــيناء تســـعون راهبـــا (١٣٠) . وقد قل عددهم بسبب اضطهاد العـــرب لهـــم (١٣١) . أما العرب (١٣٢) ، فيبلغ تعدادهم اربعمائة

= المعرض للسيول . وعندما مر نابليون بونابرت بالدير وهو فى طريقـــه لغـــزو الشـــام ، أمر الجنرال كليبر بترميم أسواره الشرقية التى آلت للسقوط . أنظر ابراهيم أمين غالى : سيناء المصرية عبر التاريخ — القاهرة ١٩٧٦ — ص ١٢٦ ، فتحى رزق : رباعيـــة سيناء — القاهرة ١٩٨٤ — ص ٢٨٦ .

(129) Basile Posniakoff, p. 24 .

(١٣٠) اختلف عـــدد رهبان سيناء ، سواء المقيمون منهم بالديـــر أو الموزعون على الكنائس الصغيرة المبعثرة فـــوق قمم الجبـــال اختلافا كبيرا باختلاف الازمنة . ففى بدايـــة القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل القرن الخامس الهجرى) كان عددهم حوالى ثلاثمائة . وفى بدايات القرن الرابع عشر (أوائل القرن الثامن الهجرى) وصل عددهم الى مائتين من الرهبان . ولكن عددهم تضاءل مع مضى الزمن بسبب تأسيس العـــديد من الاديرة فى المراكز المسيحية المعروفة ، مثل قبرص وكريت وأثينا ، مما كان له أكبـــر الاثـــر فى اجتذاب عـــدد من رهبان سيناء . يضـــاف الى ذلك أن الحماس الذى صاحب حركة الرهبنة والديرية فى بدايتها — كما هو معـــروف فى التاريخ الاوربى الوسيط — بـــدأ يخبو ويفتر ويتقلص مع الزمن . أنظـــر جوزيف نسيم يوسف : سيناء كنوزها وآثارها ، ص ١٣٣ .

(١٣١) عن أسباب قلـــة عـــدد رهبـــان ســـيناء أنظر حاشـــــية رقم ١٣٠ .

(١٣٢) كانت الدولة النبطية التى أمنت الطريق عبر شبه الجزيرة قد زالت بعد أن اســـتولى الرومان على البتراء فى عام ١٠٦ ، فأصبح أهـــل البـــدو من نهـــر الأردن الى البحـــر الاحمر لا وازع لهم يعيشون على الغزو والنهب . ووقعت الحوادث الدامية الواحدة تلو الاخـــرى ، لا سيما بعـــد جـــلاء الرومان عن البتراء فى عهـــد الامبراطور فالنس Valens فى النصف الثانى من القـــرن الرابع . ومنـــذ ذلك الحين ، فكر الرهبان فى انشـــاء ديـــر يـــكون لهم حصـــنا يؤوى رجـــال الدين ويقيهم شر الغزوات . وتحققت هذه الفكرة ، فسافر وفد من الرهبان الى القسطنطينية والتمس من الامبراطور جستينيان بناء حصن مزدوج الاغراض اذ سيعمل على تأمين الطريق من العقبة الى مصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى سيحمى =

أسرة [١٣٣] ، يعيشون فى الصحراء المجاورة للديـر .

=

الرهبـان من شر الغزوات . فاقتنع جستنيان بالفكرة ، وأرسل المهندسين والبنائين ، وتم بنـاء الديـر فى عام ٥٤٥ م . على أن هـذا الحصن لم يق الرهبان وزواره شرور الاعتداء ، لأن البدو كانوا يختبؤن فى المغاور والجبال ، وكلما وجدوا زائرا أو راهبا منفردا انقضوا عليه وقتلوه وسلبوه ماله . فلما بلغت هـذه الاخبار الامبراطور البيزنطى ، أحضر من بـلاد الفـلاخ جهـة البحر الاسود مئـة رجل بعائلاتهم وأرسلهم الى سيناء . وكتب الى ثاودروس نائبـه فى مصر فأرسل اليـه أيضـا مائـة رجل بعائلاتهم وبنى لهم أماكن وراء الجبل الشرقى على نحو ٨ أميـال من الدير ، وسكنوا فيها ، وأقاموا هنـاك فى حراسة الدير وخدمة الرهبان . وأمر جستينيان أن يكونوا فى خدمة الدير وفى طاعة رهبانه هم وأولادهم .

بالدير وثيقة تعود الى سنة ٥٣٠ م قيل أنها الطلب الذى قدمه الرهبان الى جستنيان طالبين حمايتهم من اضطهاد العربان لهم جاء فيهـا .

« نحن القسوس والرهبان القاطنين فى سيناء اننا لم نعـد نستطيع احتمال اضطهاد العربان الذين كانوا يأتوننا من البحر الاحمر والحبشة ومن كل ناحيـة ينهبوننا ويذبحوننا ويفعلون بنا كل الشرور التى يلهمهم بهـا الشيطان ، وقـد نصحنا الزوار الذين كانوا يأتون من كل الجهات لزيارة الاماكن المقدسـة أن نرسل وفـدا الى الملك جستنيان فى القسطنطينية ليبنى لنـا حصنا يقينـا هجمات العرب ... » أنظر الوثيقـة رقم ٦٩٢ سـيناء — عربى ، مكتوبة على ورق مقاس ٣٢×١٩ سم ، موضوعهـا « حجـة » أنظر جوزيف نسيم يوسف : سيناء ، ص ١٣١ ، ابراهيم أمين غالى : سيناء ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(١٣٣) يبرز هؤلاء كعنصر منفصل،وينتمون الى قبيلة الجلية،وهم سلالة مائتى جندى جاء بهم الامبراطور جستنيان بعد بنـاء الدير وذلك لحمـاية رهبانه (أنظر حاشية رقم ١٣٢) . ثم مالبثوا أن اختلطوا بالمصريين فأصبحوا مزيجـا من الروم والعرب والمصريين . وكانـوا يدينون بالمسيحية ، الا انهم اعتنقوا الاسلام فيما بعد ، وعاشوا عيشة البادية ، لكن العرب العريقين يترفعون عنهم ، فلا يتزاوجون معهم ، وعددهم الآن يقرب من ٨٠٠ شخص . ويذكر « دوما » Dumas أن آخـر امرأة مسيحية منهم ماتت سـنة ١٧٥٠ م . أنظر

J. Dumas, La Péninsule du Sinaî, Le Caire, 1951, p. 17.

وفى صباح كل يوم ، يفــد الى الدير مائتان من العرب ليحصلوا على الاتــاوة المفروضــة على الرهبان وهى : دقيق القمــح ، وزيت ، وبصل (١٣٤) • واذا امتنـــع الرهبــان عن اعطــائهم هــذه المــواد الغذائية ، يقوم العرب برجمهم بالحجارة من خارج أسوار الدير »(١٣٥)

ويذكــر بوسنياكوف أنـــه رأى بعينيـــه العنف الذى يعامل بـــه العرب الرهبـــان • وكيف أن هؤلاء الرهبـــان يتحملونهم (١٣٦) • كذلك

---

(١٣٤) ذكر الرحالة الروسى باسيل جوجارا Basile Gogara الذى زار دير القديسة كاترين سنة ١٦٣٤م أن عدد رهبان الدير بلغ آنذاك ثلاثمائة راهبــا • وأن رهبان الدير يقومون باطعام خمسمائة من العربان • وخــوفا منهم على حياتهم ، كان الرهبــان يضعون طعام العربان فى أجولة مصنوعة من الجــلد ثم ينزلونها من خلف اسوار الدير عن طريق جبال سميكة أنظر •
Basile Gogara, Voyage au Sinaî Avec L'Adjonction de Fragments sur L'Egypte Et La Terre Sainte, St. Pétersbourg, 1850, 2e Partie, pp. 83 — 84 .

(١٣٥) Voyage Posniakoff, p. 24 . وقـــد أورد ذلك أيضا الرحالة الروسى باســـيل جوجارا • أنظر Voyage Au Sinaî, p. 84.

(١٣٦) كانت المنتجات الزراعية فى طور سيناء ـــ على قلتها ـــ تثير الكثير من الخلافات بين الرهبان والعربان • ويبـــدو أن شكاياتهم كانت تصل الى مصر بهذا الخصوص ، وان كان الديــر لم يحتفظ لنـــا بصور منها • ففى منشور صادر عن ديوان الانشاء بتـــاريخ ٣ رجب ٥٢٩ هـ (١٩ ابريل ١١٣٥ م) صدر أمر بمنع كل من يتعرض لاسقف الدير ورهبانه وما يختص بهم من قمـــح وشعير وحبوب وكروم وما يعتصر منها (أنظر الوثيقة رقم ٨ بتـــاريخ ٣ رجب ٥٢٩هـ/١٩ ابريل ١١٣٥ م) • وفى منشور آخر بتـــاريخ ١٦ محرم سنة ٥٩٢ هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥ م) صدر الأمر « بأن لا يفســـح للعربان ولا لغيرهم من الموافقين والمخالفين لهم فى الاديان فى اهتضامهم » (أنظر الوثيقة رقم ١١ سطر ٣٢ ـــ ٣٣) • ويحدث أحيانا أن يطلب العربان مقاسمة الرهبان فى كرومهم ونخيلهم وغيرها من الزروع • ويخرج منشـــور من الديوان بأن « لا يعرضوا فى كرومهم ونخيلهم وزروعهم بأضرار ولا مقاسمة ولا احتجاز ، ولا اقتطاع شىء من ذلك بوجه من وجوه الاجبار ... ولتكف عنهم أسباب المساءة العائدة بغيرهم » • للتفاصيل الدقيقة المطولة من واقع وثائق الديـــر أنظـــر جوزيف نســـيم يوسف : دراســـة فى وثائق العصرين الفاطمى والايـــوبى ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ •

رأى فى هـذا الديـر أن الرهبان يخدمون الله باخـلاص وتفـان وخشـوع [١٣٧] .

ولاحظ بوسنياكوف أن فى وسط الدير يوجد بئـر موسى حيث كان نبى اليهـود يسقى من مياهه ما غـره . وفى أعـلى هذا البئـر ينمـو ورد بلدى كان سـيدنا موسى وقـد زرعـه ولا يزال ينمـو باخضرار حتى لحظة رحـلة بوسنياكوف . على أيـة حال ، فبئـر موسى عميقـة جـدا وتوفـر المـاء اللازم للديـر . وفى مواجهـة الديـر ، على اليسـار ، تنهض كنيسـة باسـيل القيصرى Basile de Césarée وقـد حولهـا الاتراك الى مسجد [١٣٨] .

ويواصل بوسنياكوف سرد تفاصيل رحلتـه قائلا :

« بعد أن أمضينا أربعـة أيام فى الدير ، قمنـا مع البطريرك بتسـلق قمـة جبل سـيناء المقدس . ولم نتمكن من تحقيق غايتنـا الا فى المسـاء بسبب وعورة الطريق وتعرجه وأحجاره الضخمة . وعلى قمـة الجبل المقدس ، زرنا كنيسـة تجلى السيد المسيح التى أقيمت فى الموضع الذى كلم الله فيه موسى . ووجـدنا على قمة هذا الجبل أيضـا مسجدا [١٣٩] .

---

(137) Basile Posniakoff, p. 24 .

(138) Basile Posniakoff, p. 25

وعن باسيل القيصرى أنظر حبيب سعيد : تاريخ المسيحية ـــ القاهرة ١٩٧٨ ـــ جـ ١ ، ص ١٦٤ ـــ ١٦٥ .

(١٣٩) للتفاصيل الدقيقة عن هذا المسجد أنظر السيد عبد العزيز سالم : الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ـــ مقال بمجلة العلوم بيروت ـــ العدد الأول يناير ١٩٦٥ ، ص ٣ وما بعدها ، جوزيف نسيم يوسف سـيناء كنوزها وآثارها التاريخية ، ص ١٣٨ ـــ ١٣٩ .

وعندما نزلنــا من الجبل ، أمضينا ليــلة فى الدير الذى صادف طريقنا • وبعــد أن أمضينا ثلاثــة أيــام فى ديــر سيناء ، تسلقنا جبل الشهيدة القديسة كاترين ، ثم وصلنــا الى حديقــة بهــا كنيستان ، الأولى مكرسة للشهداء الاربعين ، والثانية للقديس أنطوان الكبير (١٤٠) Antoine le Grand • أما الحديقة فهى جميلة وشاســـعة تحــوى كميات هائــلة من الكروم وأشــجار الكمثرى والتفــاح • ولم يصادفنا فى بلــد ما كمثرى فى ضخامة كمثرى هــذه الحديقة ولا فى لــذة طعمها • وتقـــع الحديقة بين جبل ســيناء وجبــل القديســة الشــهيدة كاترين (١٤١) •

وفى اليوم التالى ، وفى ساعة مبكرة ، قبل بزوغ الفجــر بأربع ساعات ، شرعنا فى تســلق جبل القديسة الشهيدة كاترين • واستخدمنا المصابيح لتحقيق غايتنا • على أيــة حال ، كان الصعود شاقا وصعبا بسبب الجبال الحجرية • ولم نوفق فى الوصول الى قمــة الجبـــل الا ظهرا •

والمسافة بين جبل سيناء وجبل كاترين خمســـة فرست (١٤٢) Verstes • وفى قمة الجبل شاهدنا رغات القديســة الشهيدة كاترين (١٤٣) بعد ذلك نزلنــا ودخلنا

---

(١٤٠) عنه انظر حاشية رقم ٦٤ •

(141) Basile Posniakoff, pp. 25 — 26 .

(١٤٢) اى ٥٫٣٣٥ كم •

(١٤٣) عن ذلك انظر حاشية رقم ١٢٣ •

حديقـــة أخرى فى الديـــر حيث كنيســـة الرســــولين بطرس وبولس وصوامع مخصصة لسكنى الرهبان • ثم عـــدنا ثانيـــة الى ديـــر سيناء كان ذلك يـــوم الاحتفال بعيـــد استشهاد القديســـة كاترين [١٤٤] •

وفى اليوم التالى ، توجهنا الى المكـــان الذى صام وعاش فيـــه يوحنـــا كليماك [١٤٥] Jean Climaque وفى طريقنـــا رأينـــا ســـجن جبـــل ســـيناء الـــذى زاره يوحنـــا كليمـــاك • ثـــم انتقلنـــا الى مسكن ذلك الناســـك وهو مقـــام مظلم صغير تحت الأرض • والمســـافة من الديـــر الى مكان اقامة الناسك أربعـــة فرست [١٤٦] • أما ديـــر سيناء ، فكان واقعـــا بين جبلين حجـــريين ولم نتمكن من رؤيتـــه من أى جنب[١٤٧] ، حتى اذا كنا على مسافة نصف فرست[١٤٨] •

وبعـــون الله ، امتطينا ثانيـــا صهوة جمالنـــا وتوجهنا بصحبة البطريرك نحـــو الطور Raithou

(١٤٤) أى فى الخامس والعشرين من نوفمبر •

(١٤٥) يوحنا كليماك من اوائل علماء اللاهوت . ولـــد فى فلسطين حوالى سنة ٥٢٥ م وتوفى سنة ٦٠٥ م • امضى حيـــاة متعبدا فى عـــزلة انفرادية فى صحراء جبل سيناء . استمر على حاله هذا ما يقرب من ستين سنة الف خلالها مصنفات لاهوتية على درجة كبيرة من الاهمية . اهم أعماله « Climax » أى « درج السماء » لـــذا لقب « كليماك » . وقد ترجم ارنول دانديللى Arnauld D'Andilly مصنفه هـــذا الى الفرنسية وذلك فى باريس سنة ١٦٨٨ انظر : Bouillet, p. 340.

(١٤٦) أى ٢٦٨ر٤ كم •

(147) Basile Posniakoff, p. 27 .

(١٤٨) أى ما يقرب من ٥٣٣ م •

فوصلنا اليه بعد ثلاثة أيام • وكان الطريق شاقا عبر جبال حجرية • ومن الاستحالة الوصول اليه الا على ظهر جمل • وصادفنا فى هذا الطريق العديد من المنابع المائية • اخيرا وصلنا الى الطور حيث لا يوجد يونانيون ، بل يسكنها شوام يدينون بالمسيحية وارثوذكس • كذلك يوجد خليج تمخر عبابه السفن الهندية • والمسافة بحرا من الطور الى بلاد الهند تستغرق ثلاثة أشهر • والطور مدينة صغيرة مبنية من الحجارة ، لا يسكنها الا المسيحيون • أما الأتراك ، فلا يوجد منهم الا سنجق(١٤٩) Sandjak وعشرة جنود من الانكشارية(١٥٠) •

وهناك صناعة للسفن على شواطىء البحر الاحمر • والجدير بالملاحظة أن الصناع لا يستخدمون المسامير الحديدية فى تجميع وصناعة السفن ، بل يستعيضون عنها بحبال اشجار النخيل • ويتحاشى صناع السفن استخدام المسامير الحديدية لا عتقادهم أن البحر الاحمر ملىء بالمغناطيس والجبال الممغنطة التى تجذب حديد السفن ومساميرها فتتفكك وتغرق •

ورأينا فى الطور أيضا ثورين أسودين جلبهما

---

(١٤٩) يلاحظ انه كان يتولى شئون الحكم والادارة بالطور فى العهد العثمانى اثنان ، أحدهما يطلق عليه « الحكم الشرعى ببندر الطور » والمقصود به الحاكم المدنى ، والثانى « الأغا ببندر الطور » وهو المسئول عن حفظ الأمن والنظام . أنظر الوثيقة رقم ٣٥٧ بمكتبة دير سيناء ، وهى عبارة عن فرمان يرجع الى العهد العثمانى — مقاس ٤٨ x ٢٢ سم — بتاريخ أول رمضان ٩٩١هـ (١٨ سبتمبر ١٥٨٣م) .

(150) Basile Posniakoff, pp. 27 — 28.

تجار من الهنـــد على مراكب عن طريق البحر الاحمر •
ولضخامتها يستطيع رجل أن يجلس بين قرنيهما(١٥١) •

ويوجد فى الطور كنيسة لتجلى القديســـة العذراء
تقـــع فى ســـور الدير التابع لجبل سيناء المقدس • ثم
توجهنا بعد ذلك الى الموضع الذى غرس فيه سيدنا موسى
سبعين من اشـــجار النخيل حيث كان الله قـــد أمـــر
بانســـياب اثنتى عشرة عينا من المـــاء تخترق الجبال
الحجرية تكريما لسيدنا موسى عليه السلام • رأينـــا فى
هذا الموضع شجر النخيل السبعين والعيون الاثنتى عشرة
التى تنســـاب بلا توقف حتى وقتنـــا هذا • والغريب أن
ميـــاه هـــذه العيون ساخنة ، الا أن العين المسماه مـــارة
Merra شديدة البرودة ، مرة المذاق • ومن ســـيقان
أشجارر النخيل التى كان سيدنا موسى قد غرسها ، تكونت
حديقة كبيرة تتبع جبل سيناء المقدس •

والمسافة بين الطور وكل من اشجار النخيل وعيون
موسى اثنتان فرست (١٥٢) • وبين الطور ودير القديس
يوحنا فى الطور Jean de Raïthou ثلاثة فرست(١٥٣)
وقد قلب الاتراك هذا الديـــر راســـا على عقب ، فأتـــوا
عليـــه وحولـــوه انقاضا •

ومن الطور توجهنا الى القاهرة فأمضينا عشرة أيام
لنصل اليها • وفى الطريق اليها عانينا الأمرين من قطاع

---

(151) Basile Posniakkoff, p. 28.
ولاشك ان المبالغة واضحة •

(١٥٢) أى ١٣٤ر٢ كم •

(١٥٣) أى ٢٠١ر٣ كم •

الطرق من أهل الصحراء [١٥٤] • اذ خططوا للانقضاض علينا فى معسكرنا اثنـــاء الليل • الا أن الله لم يأذن لهم بتنفيـــذ عدوانهم ، فقـــد بث الرعب فى قلوبهم ، فظلوا بجوارنا دون ان يجرؤا على مهاجمتنا • وفى اليـــوم التـــالى ، ابتعدنا عنهم دون أن يصيبنا أذى » [١٥٥] •

هكذا ، تعد رحلة « حج التاجر باسيل بوسنياكوف » أهم رحلات الرحالة الروس على الاطلاق ، رغم ما بهـــا من قصص اختلقها بطريرك الروم الارثوذكسى ودســـــها باســـيل فى نص رحلتـــه دســـا ، هادفا من ذلك — كما ســـبق أن أوضحنا — اظهار عداء اليهود لمسيحيى مصر ، وعداء الروم الارثوذكس لاقباطها وغيرهم من اتبـــــاع مذهب الطبيعة الواحدة • ومع ذلك ، فقـــد تميزت رحلة حـــج باســـيل بالاســـهاب والدقـــة الى حد كبير ، ممـــا شـــجع الرحالة الروسى تريفون على الانقضـــاض عليها انقضاضا ، ونسخها نسخا يكاد يكون حرفيا •

---

(١٥٤) نظرا لبعد الدير عن المناطق الاهـــــلة ، وصعوبة الطـــــرق والمواصلات اليــــه ، وما كان يتعرض له المسافرون الى طور سيناء لزيارة آثارها المقدسة من متاعب وصعاب ومن أخطار وأهوال ، ومنها هجـــــوم اللصوص وقطاع الطرق عليهم وسلبهم ما معهم — فقد طلب المسئولون بالدير من الحكام بمصر الاذن باصدار الأمر بعدم التعرض لمن يقـــوم بزيارة الدير ، وتأمين الطريق المؤدى اليــــه . ففى وثيقة بتاريخ ١٦ محرم ٥٩٢هـ (٢١ ديسمبر سنة ١١٩٥ م) صدر الأمر بمنع من « يتطرق لاخافة سبيلهم المسلوك لزيارتهم ... ولا يعارض زوارهم من البلاد الشامية بوجه من وجوه اضرار أو أذيـــة » . أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى ، ص ٢٨٥ : نقلا عن الوثيقة رقم ١١ سطر ٣١ و ٣٥ .

(155) Basile Posniakoff, p. 28 .

ـ رحلة تريفون كوروبئينيكوف فى سنتى ١٥٨٢ و ١٥٩٣م :

ولقد حظيت رحلة تريفون المتعلقة بزيارة الاماكن المقدسة فى الشرق وعنوانها « رحلة حج تريفون كوروبيئينيكوف [١٥٦] Pérégrinations de Triphon Korobeînikoff بشهرة بالغة فى روسيا • اذ لاقت شعبية لم تحظ بهـا غيرها من اسـفار الرحالة • وقـد ظهر نص هـذه الرحلة لأول مرة سنة ١٦٠٢ م • فغطت أحداثها على ما سبقها من رحلات • فكثر نسـخ مخطوطها حتى وصل عدد مخطوطات الرحلة الى مائتين ، وأكثر من أربعين نسـخة مطبوعة [١٥٧] •

وعلى هذا الأساس ، أصـبح نص الرحـلة بمنزلة نص مقدس وتسربت احداثها الى « سـير القديسين » ، بل أصبحت فى عـداد الأغـانى الكنسية أو الكتابات الأخرى ذات الطابع الدينى •

ظلت هـذه الرحلة على حالها من الشهرة مـدة تزيـد على قرنين من الزمان • الا أنهـا فقـدت شهرتها وأهميتها عندما اكتشف مخطوط « رحلة حج التاجر باسـيل بوسنياكوف » وذلك سنة ١٨٨٤ م • واتضح أن تريفون نقـل نقلا حرفيـا عن باسـيل بوسنياكوف كما سـبق أن ذكـرنا [١٥٨] •

---

(156) Pérégrination du secrétairedu Palais Triphon korobeî-inkoff. Compte — Rendu De Triphon Korobeînikoff, concernant La distribution des Aumones du Tzar, Saint - Pétersbourg, 1888 ; Oleg, Tripon Korobeînikoff, 1582, 1593, I.F.A.O., 1972 .

(157) Triphon Korobeînikoff, 1582, 1593, p. 29 .

(١٥٨) قـارن Posniakoff, p. 13. مـع Korobeînikoff, p. 34. ;
Posniakoff, pp. 14 — 17 . مـع تلخيص Korobeînikoff, p. 34. ;
Posniakoff, pp. 18 — 26 . مـع Korobeînikoff, pp. 34 — 42 . ;
Posniakoff, pp. 27 — 28 . مـع Korobeînikoff, pp. 43 —45 . ;

على أيــة حــال ، فى سنة ١٥٨٢ م أوفـــــد التـــزار Tzar، ايفان فاسيليفتش Ivan Vassiliévitch الشهير بايفان الرهيب[١٥٩] أوفد ايفــــان متفيفتش ميشنين Ivan Matvéiévitch Michénine الى القسطنطينية والى جبل آثوس[١٦٠] حاملا صدقات الامبراطور حتى تقــام القدسات لراحة نفس ابنة ايفان نوفتش le Tzavévitch Ivan Ivanovitch • وكان تريفــون وشخص آخــــر يدعى جــورج جريكوف Georges Grékoff من بين اعضــاء هــذه السفارة [١٦١] •

وفى العشرين من نوفمبر سنة ١٥٨٢ ، توجهت الســــفارة الى القسطنطينية ، وظلت سبعة أشهر • ثم بعد رحــلة قصيرة الى جبــل آثوس عادت السفارة ثانية الى موسكو حاملة معهــا كثير من رســائل الشكر موجهة الى التزار ، من بينها رســالة من بطريرك الاســكندرية ســلفستر Sylvestre . ويلاحظ أن هــذه الرسالة غير مؤرخــة وليس بهــا أيــة اشــارة الى مكان ارسالها أو مكان نسخها • لــذا ، لــم نتمكن من تحديد مكان التقاء أعضاء الســفارة ببطريرك الاسكندرية •

الا انه ورد فى خطــاب أرسله البطريرك سلفستر الى تــزار الروس الآتى :

« بطرك القسطنطينية وشحصى[١٦٢] ومبعوثيك تلقينا بفرحة[١٦٣] بالغــة صدقاتك »

---

(١٥٩) عنـــه أنظر حاشية رقم ٧٨ •

(١٦٠) كان جبل آثوس بلا منازع الجبل المقدس ، وهو عبارة عن شبه جزيرة ناتئة داخل البحر الايجى بالقرب من سالونيك . وكان بــه جماعة من الناسكين منــذ القرن التاسع الميلادى . للتفاصيل أنظر ج.م. هسى : العــالم البيزنطى — ترجمة رأفت عبد الحميد — القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(161) Triphon Korobeïnikoff, p. 30.

(١٦٢) أى سلفستر بطريرك الاسكندرية .

(١٦٣) المقصود هنــا كل من تريفون كوروبئينيكوف وجورج جريكوف وايفــان متفيفتش ميشنين .

استنادا الى هذا النص نستخلص أن الصدقات سلمت الى بطريرك الاسكندرية سلفستر فى القسطنطينية • لذا ، كان من غير المفيد لاعضاء السفارة القيام برحلة الى وادى النيل • وعلى هذا الأساس، فمن المشكوك فيه أن تريفون قام برحلة الى مصر وأقام فيها •

والجدير بالذكر أنه فى الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٥٨٤م • عاد أعضاء السفارة الثلاثة — ميشنين وجريكوف وتريفون — ثانية االى موسكو • وفى سنتى ١٥٨٨ و ١٥٨٩ م شغل تريفون وظيفة سكرتير القصر • أما فى سنة ١٥٩٣ فقد سافر ثانية الى خارج بلاده بصحبة سكرتير آخر للقصر يدعى ميشيل اوجركوف Michel Ogarkoff لتوزيع الصدقات التى أرسلها التزار فيودور ايفانوفتش (١٥٨٤ — ١٥٩٨ م) ، Fédor Ivanovitch واقامة القداسات لصحة الاميرة الحديثة الولادة ثيودوسيه (١٦٤) Théodosie •

وعلى هذا ، غادرت السفارة الجديدة موسكو فى التاسع عشر من يناير سنة ١٥٩٣ م ، حاملة معها صدقات هائلة قوامها خمسة الآف وخمسمائة واربعة وستون قطعة ذهبية وكميات هائلة من الفراء الثمين • وأصدرت الأوامر الى تريفون بتوزيع هذه الصدقات فى القسطنطينية وانطاكية والقدس والاسكندرية وجبل سيناء •

وفى ابريل سنة ١٥٩٣ م ، وصلت السفارة الى اقسطنطينية وكالمرة السابقة سلمت الصدقات المخصصة للكنائس المصرية التابعة للروم ارثوذكس الى بطريرك الاسكندرية ملتيوس Mélétios واقتصدت بذلك مصاريف الرحلة الى مصر • ثم توجه تريفون ورفيقه اوجركوف الى القدس • وفى العشرين من فبراير سنة ١٥٩٤ م التقيا بملتيوس وسلماه اربعمائة وثلاثين قطعة ذهبية وأربعين قطعة فراء مخصصة

---

(164) Triphon Korobeinikoff, p. 31 .

لأسقف سـيناء المدعو لوران Laurent • وهكذا ، تجنب سفيرا التزار متاعب رحلة الى سـيناء ، ثم عادا ثانيـة الى روسـيا دون أن تطـأ اقدامهمـا أرض مصر (١٦٥) •

نستخلص مما سـبق أنـه فى سنة ١٥٨٢ م لم يذهب تريفـون أبعد من القسطنطينية • أما فى سنتى ١٥٩٣ و ١٥٩٤م ، فقـد قام برحلة ثانيـة الى القسطنطينية ذهب بعدها الى القدس حيث أتم المهمة المسـندة اليـه على أكمل وجـه ، وبعدها وجـد انه لا داعى اطـلاقا أن يقـوم برحلة الى مصر ، فلم يزرها بل نقـل فى منتصف رحلتـه ما اورده عنها التـاجر الروسى باسـيل بوسنياكوف •

(165) Triphon Korobeinikoff, pp. 31 — 32 .

الخاتمـــة :

هكـــذا أظهرنا من خـــلال هذا البحث المتواضع والجديد ، ما ورد عن مصر فى كتابات الحجاج الروس . واستخلصنا أن مصنفات حجاج القـــرن الخامس عشر الميلادى لم يرد فيها الا اشـــارات ضـــئيلة عن مصر . اذ اهتمت بذكـــر المســـافات بين مدنهـــا . ومع ذلك ، يمكن القول أن هؤلاء الحجاج الأوائل تركوا ما يسمى « بخط السير » لخلفائهم من حجاج القرن الســـادس عشر . وكان أبـــرز هؤلاء على الاطلاق — كما أوضحنا — لتاجر الروسى باســـيل بوسنياكوف ، الذى أبـــرز فى مصنف رحلته العـــلاقات العدائيـــة بين اليهود والمسيحيين وذلك فى عصر السلطان طومان بـــاى ، فابتـــدع قصة الطبيب اليهودى الـــذى حاول القضاء على المسيحية ومسيحيى مصر . ولم يفقـــه ذكر تحريـــم امبراطور الروس الاتجـــار مع اليهود ، ومنعهم من دخـــول بلاده .

على أيـــة حال ، يؤخـــذ على بوسنياكوف كرهه ليس فقط لليهود والمسلمين بل أيضا لم يفلت من كرهـــه هذا أقبـــاط مصر المونوفيزيتيون المخالفون لـــه فى المذهب . وهـــذه طبيعة مؤرخى العصر الوسيط ، اذ يحقدون على مخالفيهم فى العقيـــدة أو المذهب ، ويصفونهم بالكفـــرة والهراطقة .

أمـــا بخصـــوص زيارتـــه لمصر ، فقـــد اهتم اهتماما بالغـــا بوصف تفاصيل زيارتـــه لشـــبه جزيـــرة طـــور ســـيناء . فقـــد كان الحجاج المسيحيون من مختلف بلـــدان العـــالم يتوافدون على ديـــر ســـيناء وهم فى طريقهم الى كنيسة القيامة فى القدس . ويرجع ذلك الى أن هـــذا الديـــر يعـــد من أقـــدم أديـــرة العالم ، ومن اكثرهـــا شـــهرة . فهـــو من الآثـــار الخـــالدة للامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ، ويعتبـــر آيـــة من آيـــات الفـــن والمعمار البيزنطى . لذلك

أصبح مزارر للحجـاج والسياح من كافـة ربوع العـالم على مـر العصور حتى يومنـا هـذا • اضافة الى ذلك ، فان شـبه جزيـرة طور سيناء كانت منذ أوائل العصر الوسيط ملجأ للزهاد والعباد والمتنسكين الذين يتبعون طائفـة الروم الأرثوذكس ، مما جعـل أباطـرة الروس يحرصون على رعايتهم ، وارسـال الأموال والكسـاء اليهم عن طريق مبعوثيهم من الحجاج والرحالة الروس • وكان من بين هؤلاء التـاجر باسيل بوسنياكوف وتريفون كوروبئينيكوف •

ختـام القـول ، يعد هذا البحث رسـالة موجهة الى علمـاء الآثـار ، للتنقيب فى ضوء المعلومات الواردة فيـه عن بعض الكنائس والاديرة التى لازالت مطمورة فى باطن الارض • والعمل على اكتشافها لتـرى النـور ثانية ، فيضيفون بعملهم هـذا كما أثـريا لا بأس بـه الى الآثار المسيحية المنتشرة فى ربوع مصرنا الحبيبة •

واللـه ولـى التوفيـق

فايـز نجيب اسـكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب ـ جامعة بنهـا

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
القاهرة فى ١١ نوفمبر ١٩٨٨

محتويات الكتاب *

---

* اختصارا لصفحات البحث لنشره فى المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، اكتفينا بذكر المصادر والمراجع فى الحواشى ، ولم نخصص لها قسما قائما بذاته فى نهاية البحث .

مطبعة الجبلاوى

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤٠٠ / ١٩٨٨